سورة الإسراء

سورة بني إسرائيل، وتسمى سورة الإسراء، و{سُبْحَانَ} مكية، غير قوله: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ} إلى قوله: {سُلْطَٰناً نَّصِيرًا} فهؤلاء الآيات الثمانية مدنيات. وعدد آياتها مائة وعشر، وكلماتها ألف وخمسمائة وثلاث وثلاثون، وعدد حروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون.

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ} أي تبرأ عن الشريك من سير عبده محمداً صلى الله عليه وسلم {لَيْلاً} أي في جزء قليل من الليل {مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ} أي من حرم مكة من بيت أم هانىء بنت أبي طالب {إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلأَقْصَى} أي الأبعد من الأرض وأقرب إلى السماء؛ وهو مسجد بيت المقدس وسمي أقصى، لأنه أبعد المساجد التي تزار ويطلب بها الأجر من المسجد الحرام.

وروي أن عبد الله بن سلام قال في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءته هذه الآية لأنه وسط الدنيا لا يزيد شيئاً ولا ينقص فقال صلى الله عليه وسلم: «صدقت» ثم قال: «ويقال له البيت المقدس والزيتون ولا يقال له الحرم» ا ه. والحكمة في إسرائه صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ليحصل له العروج إلى السماء مستوياً من غير تعريج لما روي عن كعب أن باب السماء الذي يقال له: مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس قال: وهو أقرب من الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. وقيل: الحكمة في ذلك أن الشام خيرة الله تعالى من أرضه كما في حديث صحيح فهي أفضل الأرض بعد الحرمين وأول إقليم ظهر فيه ملكه صلى الله عليه وسلم.

وروي أن صخرة بيت المقدس من جنة الفردوس. وقيل: الحكمة في ذلك لإظهار الحق على من عاند، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعانده سبيلاً إلى الإيضاح فلما ذكر أنه أسرى به إلى بيت المقدس سألوه عن أشياء من بيت المقدس كانوا علموا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن رآها قبل ذلك لما أخبرهم بها حصل التحقق بصدقه فيما ذكر من الإسراء به إلى بيت المقدس في ليلة وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ذلك من خبر المعراج إلى السمٰوات. وقيل: الحكمة في ذلك ليجمع الله له صلى الله عليه وسلم بين القبلتين { ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ} أي المسجد الأقصى من أرض الشام بركة دنيوية بالمياه

والأشجار وبركة دينية، لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء وأماكنهم أحياء وأمواتاً في قوله تعالى: {سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ} إلخ. معنى التنزيه والتعجب أشار الله تعالى بذلك إلى أعجب أمر جرى بينه تعالى وبين أفضل خلقه {لِنُرِيَهُ} أي محمداً صلى الله عليه وسلم {مِنْ ءَايَٰتِنَآ} أي بعض عجائب قدرتنا العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل مسيرة شهر، وثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات، فحصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن، وحينئذ يلزم أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه، لكن يبقى التعجب، لأنه حاصل في جميع المعجزات. فانقلاب العصا ثعباناً تبلغ سبعين ألفاً من الحبال والعصي، ثم تعود في الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب وخروج الناقة العظيمة من الجبل الأصم، وإظلال الجبل العظيم في الهواء عجيب، وكذا القول في جميع المعجزات، فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار، لزم الجزم بفساد القول بإثبات المعجزات؛ وهو فرع على تسليم أصل النبوة. وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإبطال فكذا هٰهنا فثبت أن المعراج ممكن غير ممتنع {إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلبَصِيرُ} أي إنه تعالى هو السميع لأقوال محمد صلى الله عليه وسلم وأحواله بلا إذن، البصير بأفعاله بلا عين فيكرمه ويقربه بحسب ذلك أي فهو عالم بكونها مهذبة خالصة من شوائب الهوى، مقرونة بالصدق والصفا، متأهلة للقرب والزلفى ويقال: إنه تعالى هو السميع لمقالة قريش البصير بهم.

روي عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً في بيت أم هاني بعد صلاة العشاء فأسري به ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانىء وقال: «مَثُل لي النبيون فصليت بهم» فلما قام ليخرج إلى المسجد تشبثت هي بثوبه صلى الله عليه وسلم فقال مالك: قالت: أخشى أن يكذبك الناس وقومك إن أخبرتهم، قال: «وإن كذبوني». فلما خرج جلس إليه أبو جهل فأخبره بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر كعب بن لؤي بن غالب، هلم فحَدَّثَهُم، فَمِنْ مُصَفّق، وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناس ممن كان آمن به صلى الله عليه وسلم وذهب رجال إلى أبي بكر وقالوا له: إن صاحبك يقول كذا وكذا فقال أبو بكر: إن كان قد قال ذلك فهو صادق. قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني أصدقه على أبعد من ذلك أي كأنه قال: لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أكذبه في هذا؟ ثم جاء أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الرسول له تلك التفاصيل

فكلما ذكر صلى الله عليه وسلم شيئاً قال له أبو بكر: صدقت. فلما تمم الكلام قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله حقاً. فقال له الرسول: «وأنا أشهد أنك الصدّيق حقاً» ويقال: إن هذا العبد الذي اختصصناه بالإسراء هو خاصة السميع لكلامنا البصير لذاتنا فهو السميع أذناً وقلباً بالإجابة لنا والقبول لأوامرنا البصير بصراً وبصيرة، وتوسيط ضمير الفصل للإشعار باختصاصه صلى الله عليه وسلم وحده بهذه الكرامة، ولهذا عقب الله تعالى بقوله هذا: {وَءَاتَيْنَآ مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ} أي التوراة أي لما ذكر الله تعالى تشريف محمد صلى الله عليه وسلم بالإسراء ذكر عقبه تشريف موسى عليه السلام بإنزال التوراة عليه مع ما فيه من دعوته عليه السلام إلى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعاً بين الأمرين المتحدين في المعنى. أي آتيناه التوراة بعدما أسرينا به إلى الطور. {وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَٰءِيلَ} والضمير يعود إلى الكتاب أو إلى موسى أي جعلنا موسى يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والدين الحق {أَلاَّ تَتَّخِذُواْ} فلا ناهية و «أن» بمعنى أي التفسيرية أو زائدة و «تتخذوا» على إضمار القول أي فقلنا: {لاَ تَتَّخِذُواْ} وقرأ أبو عمرو «أن لا يتخذوا» بالياء خبراً عن بني إسرائيل فإن مصدرية ولا نافية ولام التعليل مقدرة والمعنى آتينا موسى الكتاب لهداية بني اسرائيل لئلا يتخذوا {مِن دُونِى وَكِيلاً} أي رباً تفوضون إليه أموركم {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} نصب على الاختصاص على قراءة النهي وعلى مفعول «يتخذوا» الأول ومن دوني حال من وكيلاً والتقدير: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح، من دوني وكيلاً فالناس كلهم ذرية نوح، لأنه كان معه في السفينة ثلاثة بنين سام وحام ويافث، فالناس كلهم من ذرية أولئك {إِنَّهُ} أي نوحاً {كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} أي كثير الشكر في جميع حالاته وفي هذا إعلام بأن إنجاء من معه كان ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به، وزجر لهم عن الشرك. والمعنى ولا تشركوا بي، لأن نوحاً كان عبداً شكوراً وأنتم من ذريته فاقتدوا به كما أن آباءكم اقتدوا به، وإنما يكون العبد شكوراً إذا كان موحداً لا يرى حصول شيء من النعم إلا من فضل الله تعالى.

روي أن نوحاً عليه السلام كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني. وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظمأني. وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني. وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني. وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في

عافية ولو شاء حبسه. وإذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به فإن وجده محتاجاً آثره به.
{وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِى إِسْرٰءِيلَ فِى ٱلْكِتٰبِ} أي أخبرناهم في التوراة بحصول الفساد مرتين {لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلأَرْضِ} أي أرض الشام {مَرَّتَيْنِ} الأولى مخالفة حكم التوراة وحبس أرميـاء عليه السلام حين أنذرهم سخط الله تعالى وقتل شعياء نبي الله في الشجرة، وذلك أنه لما مات صدقياً ملكهم تنافسوا في الملك وقتل بعضهم بعضاً، وهم لا يسمعون من نبيهم فقال الله تعالى له: «قم في قومك» فلما فرغ مما أوحى الله إليه عدوا عليه ليقتلوه، فهرب، فانفلقت له شجرة، فدخل فيها، وأدركه الشيطان، فأخذ هدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار في وسطها، فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها والثاني قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم الصلاة والسلام. {وَلَتَعْلُنَّ} أي لتغلبن الناس بغير الحق {عُلُوّاً كَبِيراً} أي مجاوزاً للحدود ويقال لكل متجبر: قد علا. {فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولٰهُمَا} أولى مرتي الفساد {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ} أي قتال {شَدِيدٍ} عن حذيفة قال: قلت: يا رسول الله لقد كان بيت المقدس عند الله عظيماً جسيم الخطر عظيم القدر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هو من أجل البيوت ابتناه الله تعالى لسليمان بن داود عليهم السلام من ذهب وفضة، ودرّ وياقوت وزمرد» وذلك أن سليمان بن داود لما بناه سخَّر له الجن يأتونه بالذهب والفضة من المعادن، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد، وسخَّر له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف. قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله كيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم بختنصر، وهو من المجوس، وكان ملكه سبعمائة سنة». وهو قوله تعالى: {فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ}. {فَجَاسُواْ خِلٰلَ ٱلدِّيَارِ} أي فترددوا في أوساط الديار، ودخلوا بيت المقدس، وقتلوا الرجال، وسبوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعقاب والنكال مائة عام. {وَكَانَ} أي ذلك البعث {وَعْدًا مَّفْعُولاً} أي منجزاً {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ} أي الدولة {عَلَيْهِمْ} أي على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تبتم عن ذنوبكم ورجعتم عن الإفساد بظهور كورش الهمذاني على بختنصر. {وَأَمْدَدْنٰكُم بِأَمْوٰلٍ} كثيرة

بعدما نهبت أموالكم {وَبَنِينَ} بعدما سبيت أولادكم {وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} أي رجالاً وعدداً، أي ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس وهو كورش الهمذاني أن تسير إلى المجوس في أرض بابل وأن تستنقذ من في أيديهم من بني إسرائيل، فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقي من بني إسرائيل من أيدي المجوس، واستنقذ ذلك الحلي الذي كان من البيت المقدس ورده الله إليه كما كان أول مرة {إِنْ أَحْسَنتُمْ} بفعل الطاعات {أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ} فإنَّ ببركة تلك الطاعات يفتح الله عليكم أبواب الخيرات، {وَإِنْ أَسَأْتُمْ} بفعل المحرمات {فَلَهَا} أي فقد أسأتم إلى أنفسكم فإن بشؤم تلك المعاصي يفتح الله عليكم أبواب العقوبات {فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلآخِرَةِ} أي وعد المرة الآخرة بعثنا تطوس بن إسبيانوس الرومي مع جنوده {لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ} أي ليجعلوا آثار الحزن ظاهرة في وجوهكم.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة «ليسوء» بالتوحيد أي ليحزن الله، أو الوعد أو البعث وجوهكم، وقرأ الكسائي «لنسوء» بنون العظمة {وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ} أي بيت المقدس {كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ} أي كما دخل الأعداء فيه في أول مرة {وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ} أي ليهلكوا البلاد التي علوا عليها {تَتْبِيرًا} أي إهلاكاً، أي فلما رجعت بنو إسرائيل إلى البيت المقدس عادوا إلى المعاصي فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر، فغزاهم في البر والبحر فسباهم وقتلهم، وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذ جميع ما في بيت المقدس، واحتمله على سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة حتى أودعه في كنيسة الذهب، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدي ويرده إلى بيت المقدس وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة يرسي بها على بابل حتى ينقل إلى بيت المقدس {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ} أي لعل ربكم أن يرحمكم بعد المرة الآخرة إن تبتم توبة أخرى من المعاصي يا بني إسرائيل {وَإِنْ عُدتُّمْ} إلى الفساد مرة أخرى {عُدْنَا} إلى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى، وإن عدتم إلى الإحسان عدنا إلى الرحمة، وقد عادوا إلى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب لمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد في التوراة والإنجيل، فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي العرب فجرى القتل والجلاء على قريظة وبني النضير وبني قينقاع ويهود خيبر، والباقي منهم مقهورون بضرب الجزية {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا} أي سجناً لا يستطيعون الخروج منها أبداً {إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ} الذي آتيناكه {يِهْدِى} كل الناس {لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ} أي للطريقة التي هي أقوم الطرائق وهي ملة الإسلام فبعضهم يصل بهدايته وهم

المؤمنون وبعضهم لا وهم الكافرون {وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَاتِ} من التقوى والإحسان {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} أي بأن لهم في مقابلة تلك الأعمال أجراً كبيراً بحسب الذات وبحسب التضعيف.

{وأَنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} وهو عذاب جهنم وهذا عطف على قوله: «أن لهم» فالقرآن يبشر المؤمنين ببشارتين بأجر كبير وبتعذيب أعدائهم.

واعلم أن أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين وأن بعضهم قال: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، فهم بذلك صاروا كالمنكرين للآخرة {وَيَدْعُ ٱلإِنْسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُ بِـ ٱلْخَيْرِ} في الإلحاح، أي إن الإنسان قد يبالغ في الدعاء طلباً لشيء يعتقد أن خيره فيه مع أن ذلك الشيء يكون منبع ضرره وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء، وإنما يقدم على مثل هذا العمل لكونه مغتراً بظاهر الأمور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها.

روي أن النضر بن الحرث قال: اللهم انصر خير الحزبين اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك إلى آخره فأجاب الله تعالى دعاءه، وضربت رقبته يوم بدر. وقيل: المراد أن الإنسان في وقت الضجر يلعن نفسه وأهله وولده وماله، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك. {وَكَانَ ٱلإِنْسَٰنُ} بحسب جبلته {عَجُولاً} أي ضجراً لا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يطرأ عليه فإن كل أحد من الناس لا يخلو عن عجلة ولو تركها لكان تركها أصلح في الدنيا والدين. {وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ} أي علامتين دالتين على تمام علمنا وكمال قدرتنا، فلما بيَّن الله تعالى أن هذا القرآن يدل على الطريق الأقوم ذكر الدلائل الدالة على وحدته تعالى وهو عجائب العالم العلوي والسفلي فالقرآن نعم الدين ووجود الليل والنهار نعم الدنيا، فلولاهما لما حصل للخلق الراحة والكسب والقرآن ممتزج من المحكم والمتشابه، فكذلك الدهر مركب من الليل والنهار، فالمحكم كالنهار، والمتشابه كالليل، فكما أن المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا يحصل الانتفاع به إلا بالليل والنهار {فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ} وهي القمر، لأنه يبدو في أول الأمر على صورة الهلال، ثم لا يزال يتزايد نوره حتى يصير بدراً كاملاً، ثم يشرع في الانتقاص قليلاً قليلاً إلى أن يعود إلى المحاق {وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ} وهي الشمس {مُبْصِرَةً} أي مضيئة ذات أشعة تظهر بها الأشياء المظلمة فالإضاءة سبب لحصول الإبصار {لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ} أي لتطلبوا في الليل والنهار فضل ربكم من الرزق الحلال بالكسب

ومن الثواب الجزيل بأداء الطاعات والاحتراز عن المنهيات {وَلِتَعْلَمُواْ} بتعاقبهما {عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسَابَ} أي حساب ما دون السنين من الشهور والأيام والساعات لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية {وَكُلَّ شَىْءٍ} تفتقرون إليه في مصالح دينكم ودنياكم {فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً} أي بيّناه في القرآن تبييناً بليغاً لا شبهة فيه، فظهر كون القرآن يهدي للتي هي أقوم ظهوراً بيّناً {وَكُلَّ إِنْسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰئِرَهُ} أي عمله الذي قدرناه عليه من خير وشر {فِى عُنُقِهِ} وذكر العنق كناية عن شدة اللزم، أي ألزمناه عمله كلزوم القلادة أو الفاء للصفة بحيث لا يفارقه عمله أبداً فإن كان خيراً كان زينة له كالطوق، وإن كان شراً كان شيناً له كالغل على رقبته. وإنما يكنى العمل بالطير لأن العرب إذا أرادوا الإقدام على عمل اعتبروا أحوال الطير، فهل يطير متياماناً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجو إلى غير ذلك فيستدلون بكل واحد منها على الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سمي نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه. وقيل: المراد بالطائر صحيفة الأعمال التي كتبتها الملائكة الحفظة، فإذا مات العبد طويت تلك الصحيفة وجعلت معه في قبره حتى تخرج له يوم القيامة.
وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله ما أول ما يلقى الميت إذا أدخل قبره قال: «يا ابن مسعود ما سألني عنه أحد إلا أنت فأول ما يناديه ملك اسمه رومان يجوس خلال المقابر فيقول: يا عبد الله اكتب عملك، فيقول: ليس معي دواة ولا قرطاس ولا قلم، فيقول: كفنك قرطاسك، ومدادك ريقك وقلمك أصبعك فيقطع له قطعة من كفنه، ثم يشرع العبد يكتب وإن كان غير كاتب في الدنيا فيذكر حينئذ حسناته وسيئاته كيوم واحد، ثم يطوي الملك القطعة ويعلقها في عنقه». ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «{وَكُلَّ إِنْسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰئِرَهُ فِى عُنُقِهِ}» أي عمله فيه وقيل: المراد بالطائر كتاب إجابته في القبر لمنكر ونكير {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَابًا} أي مكتوباً فيه عمله {يَلْقَٰهُ} أي يلقى الإنسان. وقرأ ابن عامر «يلقاه» بضم الياء وفتح اللام، والقاف المشددة أي يعطاه {مَنْشُوراً} أي مفتوحاً ويقال له: { ٱقْرَأْ كَتَٰبَكَ}.
قال الحسن وقتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئاً. وقال بكر بن عبد الله: يؤتى بالمؤمن يوم القيامة بصحيفته وهو يقرؤها وحسناته في ظهرها يغبطه الناس عليها وسيئاته في جوف صحيفته وهو يقرؤها حتى إذا ظن أنها قد أوبقته قال الله تعالى: اذهب فقد غفرتها لك فيما بيني وبينك فيعظم سروره. {كَفَىٰ

بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} أي محاسباً. قال الحسن: ومن عدل الله في حقك جعلك حسيب نفسك.

وقال السدي: يقول الكافر يومئذ له تعالى: إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له: { ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}.

{مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ} أي من اهتدى بهداية القرآن وعمل بما في تضاعيفه من الأحكام وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه لا تتخطاه إلى من لم يهتد فإن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله {وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أي ومن ضل عن الطريقة التي يهديه إليها فإنما وبال ضلاله عليها لا على من لم يباشره {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} أي لا تحمل نفس حاملة للإثم إثم نفس أخرى بطيبة النفس حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن إثمها، ولكن يحمل عليها بالقصاص فلا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى فكل أحد مختص بذنب نفسه، وهذا قطع لأطماع الكفار حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالعقاب على أسلافهم الذين قلدوهم الدين الفاسد {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ} قوماً بالهلاك {حَتَّىٰ نَبْعَثَ} إليهم {رَسُولاً} يهديهم إلى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحجج، ويمهد الشرائع.

وأهل الفترتين بين نوح وإدريس وبين عيسى ومحمد عليهم السلام ثلاثة عشر قسماً ستة سعداء وأربعة أشقياء وثلاثة تحت المشيئة. فأما السعداء: فقسم وحَّد الله تعالى بنور وجده في قلبه كقس بن ساعدة فإنه كان إذا سئل هل لهذا العالم إله قال: البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير. وقسمٌ وحّد الله تعالى بما تجلى لقلبه من النور الذي لا يقدر على دفعه. وقسم ألقي في نفسه، واطلع من كشفه على منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به في عالم الغيب. وقسم اتبع ملة حق ممن تقدمه. وقسم طالع في كتب الأنبياء فعرف شرف محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به وقسم آمن بنبيه الذي أرسل إليه وأدرك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به فله أجران. وأما الأشقياء: فقسم عطل بلا نظر بل بتقليد. وقسم عطل بعد ما أثبت بلا استقصاء نظر. وقسم أشرك عن تقليد محض. وقسم علم الحق وعانده. وأما الذي تحت المشيئة: فقسم عطل فلم يقر بوجود الإله عن نظر ناقص لضعف في طبائعه. وقسم أشرك عن نظر أخطأ فيه. وقسم عطل بعدما أثبت بغير نظر قوي. ونقل عن السيوطي أن أبوي النبي صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً} وحكم من

لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجياً ولا يعذب ويدخل الجنة {وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} أي وإذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك قرية بعذاب الاستئصال أمرنا على لسان الرسول المبعوث إلى أهلها رؤساءها بالأعمال الصالحات وهي الإيمان والطاعة.

وروي برواية غير مشهورة عن نافع وابن عباس «أمرنا مترفيها» بمد الهمزة أي كثرنا أغنياءها وفساقها. وعن أبي عمرو «أمرنا» بتشديد الميم أي جعلنا جبابرتها أمراء. {فَفَسَقُواْ فِيهَا} أي فخرجوا عما أمرهم الله وعملوا المعاصي فيها {فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ} أي فثبت عليها ما توعدناهم به على لسان رسولنا من الإهلاك {فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} أي فأهلكناها إهلاك الاستئصال {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ} أي وكثيراً أهلكنا من الأمم الماضية من بعد قوم نوح فإن الطريق الذي ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون من القرون الذين كانوا بعد نوح وهم عاد وثمود وغيرهم وإنما قال تعالى: {مِن بَعْدِ نُوحٍ} لأنه أول من كذبه قومه وخوَّف تعالى بهذه الآية كفار مكة {مَّن كَانَ يُرِيدُ} بالذي يعمله {ٱلْعَاجِلَةَ} أي الدار العاجلة فقط {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا} أي في تلك الدار {مَا نَشَآءُ} تعجيله له من نعيمها {لِمَن نُّرِيدُ} تعجيل ما نشاء له وهذا بدل من الضمير بإعادة الجار بدل بعض من كل فلا يجد كل واحد جميع ما يهواه فإن كثيراً من الكفار يعرضون عن الدين في طلب الدنيا، ثم يبقون محرومين عن الدنيا والدين {ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ} في الأخرة مكان ما عجلناه {جَهَنَّمَ} وما فيها من أنواع العذاب {يَصْلَاهَا} أي يدخلها {مَذْمُومًا} أي مهاناً بالذم {مَّدْحُورًا} أي مطروداً من رحمة الله تعالى.

قيل: نزلت هذه الآية في مرثد بن ثمامة {وَمَنْ أَرَادَ ٱلآخِرَةَ} أي أراد بعمله ثواب الآخرة {وَسَعَىٰ لَهَا} أي للدار الآخرة {سَعْيَهَا} بأن يكون العمل من باب القرب والطاعات {وَهُوَ مُؤْمِنٌ} إيماناً صحيحاً {فَأُوْلَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم} أي عملهم {مَّشْكُورًا} أي مقبولاً عند الله أحسن القبول. قيل: نزلت هذه الآية في بلال المؤذن {كُلاًّ} أي كل واحد من الفريقين مريد الدنيا ومريد الآخرة {نُّمِدُّ} أي نزيد بالعطاء {هَٰؤُلَآءِ} أي الذين يريدون الدنيا {وَهَٰؤُلَآءِ} أي الذين يريدون الآخرة وهذان بدلان من كلاً فإن الله يوسع عليهما في الرزق من الأموال والأولاد وغير ما من أسباب العز والزينة في الدنيا {مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ} أي من معطاه الواسع وهذا متعلق «بنمد» {رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ} أي معطاه في الدنيا {مَحْظُورًا} أي ممنوعاً من أحد، مؤمناً كان أو كافراً، لأن الكل مخلوقون في دار العمل فأزاح تعالى العذر عن الكل،

وأوصل تعالى متاع الدنيا إلى الكل على القدر الذي يقتضيه الصلاح {ٱنظُرْ} أيها الإنسان بنظر الاعتبار {كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ} فيما أمددناهم به من العطايا في الدنيا فمن وضيع ورفيع، وضائع وضليع، ومالك ومملوك، وموسر وصعلوك {وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجٰتٍ} من درجات الدنيا فإن درجات الآخرة باقية غير متناهية ونعم الدنيا فانية متناهية {وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} من تفضيل درجات الدنيا أي التفاوت في الآخرة أكبر، لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها، ثم ذكر الله تعالى من أنواع التكاليف خمسة وعشرين نوعاً بعضها أصلي وبعضها فرعي وهي: تفصيل لثلاثة شروط لأهل الثواب وهي إرادة الآخرة بالعمل، وأن يسعى سعياً موافقاً لطلب الآخرة وأن يكون مؤمناً فقال: {لاَّ تَجْعَل} أيها الإنسان {مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ} أي فتمكث في الناس أو فتعجز عن سعادة الآخرة أو فتصير {مَذْمُومًا} من الملائكة والمؤمنين {مَّخْذُولاً} من الله تعالى.

{وَقَضَىٰ رَبُّكَ} أي أمر أمراً جزماً. وقرأ علي وابن عباس وعبد الله «ووصى ربك»، {أَلاَّ تَعْبُدُوۤاْ إِلاَّ إِيَّهُ} ف «أن» إما مفسرة أو مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن و «لا» ناهية {وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ} أي أحسنوا بهما {إِحْسَٰناً} عظيماً كاملاً فإن إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة فوجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك ومع ذلك لا تحصل المكافأة، لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء وفي الأمثال المشهورة أن البادىء بالبر لا يكافأ {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} أي إن يبلغا إلى حالة الضعف وهما عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر فلا تتضجر لواحد منهما بما تستقذر منه ولا تستثقل من مؤنه، أي ولا تقل له كلاماً رديئاً إذا وجدت منه رائحة تؤذيك كما أنهما لا يتقذران منك حين كنت تخرأ أو تبول. وقرأ حمزة والكسائي «يبلغان» فأحدهما بدل من ضمير التثنية. وقرأ ابن كثير وابن عامر «أف» بفتح الفاء من غير تنوين ونافع وحفص بكسر الفاء مع التنوين. والباقون بكسر الفاء من غير تنوين. {وَلاَ تَنْهَرْهُمَا} أي لا تغلظ لهما في الكلام. والمراد من قوله تعالى: {فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفّ} لمنع من إظهار الضجر بالقليل أو الكثير ومن قوله {وَلاَ تَنْهَرْهُمَا} المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليه {وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا} أي ليناً حسناً بأن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم {وَ ٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ} أي لين لهما جانبك المذلول. والمراد افعل التواضع لهما {مِنَ ٱلرَّحْمَةِ} أي من أجل فرط عطفك عليهما ورقتك لهما بسبب ضعفهما لا لأجل خوفك من

العـار. {وَقُـل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَـا كَمَـا رَبَّيَـانِى صَـغِيرًا} أي ادع لهمـا بالرحمـة ولـو خمـس مـرات فـي اليـوم والليلـة بـأن تقـول: رب ارحمهما برحمتك الدنيوية والأخروية رحمة مثل تربيتهما إيـاي فـي صغري؟ ويجـوز أن تكـون الكـاف للتعليـل، أي لأجـل تربيتهمـا لـي {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ} من الإخلاص وعدمه في برهما {إِن تَكُونُواْ صَـٰلِحِينَ} أي صـادقين فـي نيـة الـبر بالوالـدين إن كنتـم رجـاعين إلـى اللـه تعـالى {فَـإِنَّهُ} تعـالى {كَـانَ لِلأَوَّابِيـنَ} أي للرجـاعين إليـه تعـالى عمـا فـرط منهـم {غَفُـوراً} فيكفـر عنهـم سيئاتهم {وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ} أي أعط ذا القرابة من جهة الأب والأم وإن بعد {حَقَّهُ} من صلة الرحم بالمال أو غيره {وَٱلْمِسْـكِينَ} أي أعط المسكين حقه من الإحسان إليـه {وَٱبْـنَ ٱلسَّـبِيلِ} أي أعـطِ الضيف النازل بك حقه وهو إكرامه ثلاثة أيام {وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} وهو إنفاق المـال فـي المعصـية وفـي الفخـر والسـمعة {إِنَّ ٱلْمُبَـذِّرِينَ كَانُوۤاْ إِخْـوَٰنَ ٱلشَّـيَـٰطِينِ} أي أتبـاعهم فـي الصـرف فـي المعاصـي {وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِ كَفُـورًا} فـإنه يسـتعمل بـدنه فـي المعاصـي والإفساد في الأرض، وكذلك كل من رزقه الله تعالى مـالاً أو جاهـاً فصرفه إلى غير مرضاة الله تعالى كـان كفـوراً لنعمـة اللـه تعـالى فكان المبذرون موافقين للشياطين في تلك الصفة.

{وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّـن رَّبِّـكَ تَرْجُوهَـا} أي إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد لكونك كنت فقيراً فـي وقـت طلبهـم منـك {فَقُـل لَّهُمْ قَـوْلاً مَّيْسُورًا} أي ليناً سهلاً بأن تعدهم بالإعطاء عنـد مجيـء الـرزق أو تقول لهم الله يسهل.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بعد نزول هذه الآية إذا لم يكن عنده ما يعطي وسئل يقول: يرزقنا اللـه تعـالى وإيـاكم من فضله اه. وقوله تعالى: { ٱبْتِغَاء رَحْمَةٍ مّن رَّبّكَ تَرْجُوهَا} كنايـة عن الفقر، لأن فاقد المال يطلب رحمة الله فسـمى الفقـر بابتغـاء رحمة الله من إطلاق اسم المسبب عن اسـم السـبب {وَلاَ تَجْعَـلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ} أي لا تجعل يدك فـي انقباضـها كالمغلولـة الممنوعة من الانبساط أي لا تمسك عن الإنفاق بحيث تضيق علـى نفسك وأهلك {وَلاَ تَبْسُطْهَا} في الإنفـاق {كُـلَّ ٱلْبَسْـطِ} أي فـي وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شـيء {فَتَقْعُـدَ مَلُومًـا} أي فتصـير ملوماً عند الله وعنـد أصـحابك فهـم يلومونـك علـى تضـييع المـال بالكلية، وإبقاء الأهل والولد فـي الضـر وتبقـى ملومـاً عنـد نفسـك بسبب سوء تدبيرك وترك الحزم في مهمات معاشـك {مَّحْسُـوراً}

أي نادماً أو منقطعاً عنك الأحباب بسبب ذهاب الأسباب {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ} أي إن الله يوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض الآخر وهو يربي المربوب ويدفع حاجاته على مقدار الصلاح فعلى العباد أن يقتصدوا في الإنفاق وأن يستنوا بسنته تعالى {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ويعلم أن مصلحة كل إنسان في أن لا يعطيه إلا ذلك القدر فالتفاوت في أرزاق العباد لأجل رعاية الصلاح لا لأجل البخل {وَلاَ تَقْتُلُوۤاْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ} أي خشية وقوع فقر بكم فقتل الأولاد، إن كان لخوف الفقر فهو سوء ظن بالله وإن كان لأجل الغيرة على النبات فهو سعي في تخريب العالم. فالأول: ضد التعظيم لأمر الله تعالى. والثاني: ضد الشفقة على خلق الله.

قال بعضهم: والذي حملهم على قتل الأولاد البخل وطول الأمل {نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم} أي نزرقهم من غير أن ينقص من رزقكم شيء فيطرأ عليكم ما تخشونه من الفقر {إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} أي ذنباً عظيماً. وقرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء. وقرأ ابن عامر بفتح الخاء والطاء مع القصر بمعنى ضد الصواب. وقرأ ابن كثير بفتح الخاء والطاء مع المد {وَلاَ تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰ} بإتيان مقدماته {إِنَّهُ} أي الزنا {كَانَ فَاحِشَةً} أي ظاهرة القبح لاشتماله على فساد الأنساب وعلى التقاتل فإن الإنسان لا يعرف أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره فلا يقوم بتربيته وذلك يوجب ضياع الأولاد وانقطاع النسل وخراب العالم {وَسَآءَ سَبِيلاً} لأنه لا يبقى فرق بين الإنسان والبهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث فالله تعالى وصف الزنا في آية أخرى بصفات ثلاثة، فالذي لم يذكر هنا كونه مقتاً فإن المرأة إذا تمرنت على الزنا يستقذرها كل طبع سليم وكل خاطر سليم وإذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق فحينئذ لا تحصل لها الألفة ولا يتم الازدواج.

{وَلاَ تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ} قتلها بالإسلام والعهد {إِلاَّ بِٱلحَقِّ} أي بسبب الحق وهو عند القصاص فهو متعلق بلا تقتلوا {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا} بغير حق يبيح القتل للقاتل {فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ} من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث {سُلْطَاناً} أي استيلاء على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية {فَلاَ يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ} أي فلا يسرف الولي في أمر القتل بأن يزيد على القتل المثلة وقطع الأعضاء أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه، أو بأن يقتل الاثنين مكان الواحد أو بأن يقتل القاتل مع أخذ الدية. وقيل:

المعنى ولا يسرف القاتل الظالم والإسراف هو إقدامه على القتل بالظلم. وقرأ حمزة والكسائي «فلا تسرف» بالتاء على الخطاب، أي لا تسرف في القتل أيها الولي، أي اكتف باستيفاء القصاص ولا تطلب الزيادة. أو لا تسرف أيها الإنسان أي لا تفعل القتل الذي هو ظلم محض، فإنك إن قتلت مظلوماً استولى في القصاص منك. ويعضد هذا قراءة «ولا تسرفوا». {إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}.

قال مجاهد: إن المقتول المظلوم كان منصوراً في الدنيا بإيجاب القود على قاتله، وفي الآخرة بكثرة الثواب له وبكثرة العقاب لقاتله.

وقال قتادة: إن ولي المقتول كان منصوراً على القاتل حيث أوجب الله له القصاص أو الدية وأمر الحكام بمعونته في استيفاء حقه فليكتف بهذا القدر ولا يطمع في الزيادة. {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلاَّ بِـ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ} وهي حفظه وأرباحه {حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} أي حتى يبلغ إلى حيث يمكنه بسبب رشده القيام بمصالح ماله فحينئذ تزول ولاية غيره عنه فإن بلغ غير كامل العقل لم تزل الولاية عنه {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ} سواء جرى بينكم وبين ربكم أو جرى بينكم وبين الناس {إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً} أي مسؤولاً عنه فيسأل الناكث ويعاتب عليه يوم القيامة.

{وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ} أي أتموه {إِذا كِلْتُمْ} لغيركم {وَزِنُواْ بِٱلقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ} أي بميزان العدل بحيث لا يميل إلى أحد الجانبين. {ذٰلِكَ} أي الوزن بالميزان المعتدل وإيفاء الكيل والعهد {خَيْرٌ} في الدنيا، فإنه يوجب الذكر الجميل بين الناس {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} أي عاقبة في الآخرة فإنه يخلص من العقاب الشديد {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} أي لا تكن أيها الإنسان في اتباع ما لا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكاً لا يدري أنه يوصل له إلى مقصده. والمراد بالعلم هو الظن المستفاد من سند {إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْبَصَرَ وَ ٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ} أي كل واحد من تلك الأعضاء {كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} أي كان كل واحد منها مسؤولاً عن نفسه أي عما فعل به صاحبه ولا يبعد أن يخلق الله الحياة والعقل والنطق في هذه الأعضاء، ثم إنه تعالى يوجه السؤال عليها وفي هذا دليل على أن العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية.

روي عن شكل بن حميد قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا نبي الله علمني تعويذاً أتعوذ به فأخذ بيدي ثم قال: «قل أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وشر قلبي وشر منيي» قال: فحفظتها {وَلاَ تَمْشِ فِى ٱلأَرْضِ مَرَحًا} أي ذا شدة فرح أي لا تمشِ مشياً يدل على الكبرياء والعظمة {إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ

ٱلأَرْضَ} أي لن تنقبها بشدة وطأتك {وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً} أي لن يبلغ طولك الجبال.

والمعنى تواضع ولا تتكبر فإنك خلق ضعيف من خلق الله فلا يليق بك التكبر {كُلُّ ذٰلِكَ} أي المذكور من الخصال الخمس والعشرين {كَانَ سَيِّئُهُ} بضم الهمزة والهاء أي السيىء منه وهي المنهيات الاثنا عشر {عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} أي محرماً مبغوضاً فاعله معاقباً عليه. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «سيئة» بالتاء وبالنصب، وهو خبر كان وعند ربك صفة لسيئة ومكروهاً خبر ثانٍ لكان. والمعنى كل ما تقدم من المنهيات وهي اثنتا عشرة خصلة كان سيئة أي ذنباً {ذٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ} أي ذلك التكاليف الأربعة والعشرون نوعاً بعض ما أوحى إليك ربك {مِنَ ٱلْحِكْمَةِ} التي هي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به وهذا خبر ثانٍ {وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا} يلومك نفسك وغيرها {مَّدْحُورًا} أي مبعداً من رحمة الله تعالى {أَفَأَصْفٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ} أي اختاركم ربكم فخصكم بالذكور {وَٱتَّخَذَ} لنفسه {مِنَ ٱلْمَلَٰئِكَةِ إِنَاثًا} أي إن كفار مكة اعتقدوا أن أشرف الأولاد البنون وأخسهم البنات، ثم إنهم أثبتوا البنين لأنفسهم مع علمهم بنهاية نقصهم، وأثبتوا البنات لله مع علمهم بأن الله هو الموصوف بالكمال الذي لا نهاية له وذلك يدل على نهاية جهلهم {إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ} بسبب ذلك الاعتقاد {قَوْلاً عَظِيمًا} في الفرية على الله حيث تجعلونه تعالى من نوع الأجسام، ثم تنسبون إليه ما تكرهون من أخس الأولاد، ثم تصفون الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق بالأنوثة التي هي أخس أوصاف الحيوان.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا} أي كررنا هذه الدلائل {فِى هٰذَا ٱلْقُرْءَانِ} أي في مواضع منه {لِيَذَّكَّرُواْ} بفتح الذال والكاف وتشديدهما أي ليعرفوا بطلان ما يقولونه. وقرأ حمزة والكسائي «ليذكروا» ساكنة الذال مضمومة الكاف أي ليفهموا ما في القرآن أو ليذكروه بألسنتهم فإن الذكر باللسان قد يؤدي إلى تأثر القلب بمعناه. {وَمَا يَزِيدُهُمْ} أي والحال ما يزيدهم ذلك التكرير {إِلاَّ نُفُورًا} أي تباعداً عن الإيمان، وهذا دليل على أن الله ما أراد الإيمان من الكفار {قُلْ} في إظهار بطلان ذلك من جهة أخرى: {لَّوْ كَانَ مَعَهُ} تعالى {ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ} أي كوناً موافقاً لما يقولون: {إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً} أي لطلبوا إلى من له الملك سبيلاً بالمغالبة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض.

وقيل: المعنى لو كانت هذه الأصنام تقربكم إلى الله زلفى كما تقولون لطلبت لأنفسها المراتب العالية فلما لم تقدر على ذلك

فكيف يدرك في العقل أن تقربكم إلى الله منزلة {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} أي تنزه الله وارتفع بصفات الكمال عن الشركاء والنقائص ارتفاعاً عظيماً {تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ} أي تنزه الله تعالى السمٰوات السبع والأرض عن كل نقص بدلالة أحوالها على توحيد الله تعالى وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك، ويصير لها بمنزلة التسبيح، وتسبح العقلاء بلسان المقال. وقرأ ابن كثير «كما يقولون» و «عما يقولون» و «يسبح» بالياء في هذه الثلاثة. وقرأ حمزة والكسائي كلها بالتاء. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم في الأول بالتاء على الخطاب. وفي الثاني والثالث بالياء. وقرأ حفص عن عاصم الأولين بالياء على الحكاية والأخير بالتاء. وقرأ أبو عمرو الأول والأخير بالتاء والأوسط بالياء {وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ} أي ما من شيء من الأشياء حيواناً كان أو نباتاً أو جماداً إلا ينزهه تعالى متلبساً بحمده بلسان الحال عما لا يليق بذاته تعالى من لوازم الإمكان فالأكوان بأسرها شاهدة بتلك النزاهة {وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ} أيها المشركون {تَسْبِيحَهُمْ} فإن الكفار وإن كانوا مقرين بألسنتهم بإثبات إله العالم لم يتفكروا في أنواع الدلائل ولم يعلموا كمال قدرته تعالى فاستبعدوا كونه تعالى قادراً على النشر والحشر فهم غافلون عن أكثر دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، لأنهم أثبتوا لله شركاء وزوجاً وولداً. وقرىء «لا يفقهون» على صيغة المبني للمفعول مع فتح الفاء وتشديد القاف. {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا} ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم ولذا كان {غَفُورًا} لمن تاب منكم {وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرءَانَ} بمكة {جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ} أي المنكرين للبعث {حِجَابًا مَّسْتُورًا}.

روى ابن عباس أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويستمعون إلى حديثه فقال النضر: يوماً ما أدري ما يقول محمد غير أني أرى شفتيه تتحرك بشيء. وقال أبو سفيان: إني لا أرى بعض ما يقوله حقاً، وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب: هو كاهن. وقال حويطب بن عبد العزى: هو شاعر. فنزلت هذه الآية، والله تعالى خلق حجاباً في عيونهم يمنعهم عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وعن إدراك ما عليه من النبوة وعن فهم قدره الجليل وذلك الحجاب شيء لا يراه أحد فكان مستوراً من هذا الوجه {وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً} أي موانع من {أَن يَفْقَهُوهُ} أي يفهموا القرآن حق الفهم {وَفِىءَاذَانِهِمْ وَقْرًا} أي صمماً مانعاً من سماعه اللائق

به أي كان بعضهم يحجب بصره عن رؤية النبي إذا أراده بمكروه وهو يقرأ القرآن وبعضهم يحجب قلبه عن إدراك القرآن ويحجب سمعه عن سماعه {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُ} أي غير مقرون بآلهتهم في الألوهية، وهذا منصوب على الحال من ربك أو على الظرف {وَلَّوْاْ عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُوراً} أي متباعدين عن قولك أي كان الكفار عند استماع القرآن على حالتين، فإذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله بقوا متحيرين لا يفهمون منه شيئاً، وإذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك بالله تركوا ذلك المجلس ولا يستطيعون سماع القرآن {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ} إلى قراءة القرآن {بِهِ} أي بسببه من الهزء والتكذيب {إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} أي إلى قراءتك.

روي أنه صلى الله عليه وسلم كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره رجلان من ولد قصي أو من بني عبد الدار فيصفقون ويصفرون، ويخلطون عليه بالأشعار. {وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا} أي ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم إذ هم ذوو نجوى، إذ يقول المشركون بعضهم لبعض: إنكم إن اتبعتم محمداً فقد اتبعتم رجلاً زال عقله عن حدِّ الاعتدال.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر علياً أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ففعل على ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد وقال: «قولوا: لا إله إلا الله حتى تطيعكم العرب وتنقاد لكم العجم» فأبوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبي صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوة إلى الله تعالى يقولون بينهم متناجين: هو ساحر وهو مسحور وما أشبه ذلك من القول فأخبر الله تعالى بأنهم يقولون: ما تتبعون إن وجد منكم الأتباع إلا رجلاً مخدوعاً من قبل الشيطان فإنه يتخيل له فيظن أنه ملك ومن جهة الناس فإن محمداً يتعلم من بعض الناس هذه الكلمات وأولئك يخدعونه بهذه الحكايات { ٱنظُرْ} يا أشرف الرسل {كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلأَمْثَالَ} فكل أحد شبهك بشيء آخر فقالوا: إنه كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون {فَضَلُّواْ} في جميع ذلك القول عن طريق الحق {فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً} إلى طعن يمكن أن يقبله أحد فيأتون بما لا يرتاب في بطلانه أحد {وَقَالُوۤاْ أَءِذَا كُنَّا} أي صرنا {عِظَٰماً} بالية {وَرُفَٰتاً} أي تراباً رميماً {أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً} أي مخلوقين تجدد الروح فينا بعد الموت.

{قُلْ} لهم يا أكرم الرسل: {كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداًأَوْ خَلْقًا} آخر {مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ}. والمعنى لو تكونون حجارة مع أنها لا تقبل الحياة، بحال أو حديداً مع أنه أصلب من الحجارة أو خلقاً غيرهما كائناً من الأشياء التي تعظم في اعتقادكم عن قبول الحياة، كالسمٰوات والأرض، فلا بد من إيجاد الحياة فيكم فإن قدرته تعالى لا تعجز عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعراض فكيف إذا كنتم عظاماً ممزقة وقد كانت طرية موصوفة بالحياة من قبل والشيء أقبل لما اعتيد فيه مما لم يعتد {فَسَيَقُولُونَ} تمادياً في الاستهزاء {مَن يُعِيدُنَا} أي من الذي يقدر على إعادة الحياة إلينا إذا صرنا كذلك {قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} أي قل إرشاداً لهم إلى طريقة الاستدلال فالذي ابتدأ خلقكم أول مرة من غير مثال يعيدكم إلى الحياة بالقدرة التي ابتدأكم بها فكما لم تعجز تلك عن البداءة لا تعجز عن الإعادة {فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ} أي فسيحركونها جهتك تعجباً وتكذيباً لقولك {وَيَقُولُونَ} استهزاء {مَتَىٰ هُوَ} أي الذي وعدتنا من الإعادة {قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ} ذلك {قَرِيبًا} إذ كل آتٍ قريب {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ} على لسان إسرافيل بالنداء الذي يسمعكم من القبور وهو النفخة الأخيرة، فإن إسرافيل ينادي: أيتها الأجسام البالية، والعظام النخرة، والأجزاء المتفرقة عودي كما كنت بقدرة الله تعالى وبإذنه {فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ}. قال سعيد بن جبير: أي فيخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك. قال المفسرون: حمدوا حين لا ينفعهم الحمد. وقال الزمخشري: بحمده حال منهم أي حامدين وهذا مبالغة في إنقيادهم للبعث {وَتَظُنُّونَ} عندما ترون الأهوال الهائلة {إِن لَّبِثْتُمْ} أي ما مكثتم في القبور أو في الدنيا {إِلاَّ قَلِيلاً} كالذي مر على قرية {يَقُولُواْ} لهم الكلمة {ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ} كأن يقولوا: يهديكم الله. وقيل: نزلت هذه الآية في عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره الله تعالى بالعفو {إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ} أي يهيج الشر بين الناس ويغري بعضهم على بعض لتقع بينهم المخاصمة {إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ} في قديم الزمان {لِلإِنْسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا} أي ظاهر العداوة {رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ} أي بعاقبة أمركم {إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ} بأن يوفقكم للإيمان والمعرفة إلى أن تموتوا فينجيكم من العذاب {أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ} بأن يميتكم على الكفر فيعذبكم إلا أن تلك المشيئة غائبة عنكم فاجتهدوا أنتم في طلب الدين الحق، ولا تصروا على الباطل لئلا تصيروا محرومين عن السعادات الأبدية. ويقال: هذه تفسير للتي هي أحسن أي قولوا

لهم: هذه الكلمة ولا تقولوا أيها المؤمنون للمشركين: إنكم من أهل النار، فإنه مما يهيجهم على الشر مع أن عاقبة أمرهم مغيبة عنكم فعسى يهديهم الله إلى الإيمان. ويقال: إن يشأ ينجكم منهم، وإن يشأ يسلطهم عليكم. {وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً} أي موكولاً إليك أمرهم فتقسرهم على الإيمان، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة عليهم، فإن اللين عند الدعوة يؤثر في القلب، ويفيد حصول المقصود.

{وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي بأحوالهم فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ممن يستحق ذلك وهو رد عليهم إذ قالوا: بعيد أن يكون يتيم أبي طالب نبياً ولا يجوز إطلاق يتيم على النبي صلى الله عليه وسلم لإشعاره بالتحقير حتى أفتى بعض المالكية بقتل قائله كما في الشفاء {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ} بالفضائل النفسانية لا بكثرة الأموال والأتباع وهذا إشارة إلى تفضيل رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم {وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} فيه ذكر فضل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكونه خاتم النبيين وأمته خير الأمم، وكون الأرض يرثها عباد الله الصالحون وهم محمد وأمته وهذا بيان أن تفضيل داود بإيتاء الزبور لا بإيتاء الملك والسلطنة ورد لقول اليهود لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة أي فإذا أعطى الله تعالى التوراة فلم يبعد أن يعطي داود زبوراً وعيسى الإنجيل، ومحمداً القرآن، ولم يبعد أن يفضل محمداً على جميع الخلق فكيف تنكر اليهود ذلك وكفار قريش فضل محمد وإعطاءه القرآن؟ {قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ} أي قل يا أشرف الخلق للكفار: ادعوا عند الشدة الذين عبدتم من دون الله كعيسى ومريم وعزير، وطائفة من الملائكة، وطائفة من الجن {فَلاَ يَمْلِكُونَ} أي لا يستطيعون {كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنْكُمْ} أي رفع الشدة عنكم {وَلاَ تَحْوِيلاً} للضر إلى غيركم {أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ} أي الذين يتألهونهم {يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} أي يحرص من هو أقرب إلى ربهم القربة بالطاعة إليه فأولئك مبتدأ وخبره يبتغون والذين عطف بيان والوسيلة مفعول ليبتغون وإلى ربهم متعلق بالوسيلة وأي موصولة بدل من فاعل يبتغون.

وقيل: إن اسم الموصول خبر لاسم الإشارة ويبتغون حال من فاعل يدعون، والمعنى أولئك المعبودون لهم يعبدون ربهم يطلبون بتلك العبادة القربة إلى ربهم والفضيلة عنده وهم أقرب إليه {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ} بها {وَيَخَٰفُونَ عَذَابَهُ} بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضرّ فكيف يكونون آلهة؟ {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ

مَحْذُورًا} أي يجب الحذر عنه {وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا} أي وما من قرية طائعة أهلها أو عاصية إلا وتهلك إما بالموت، وإما بالعذاب. فالصالحة: يكون إهلاكها بالموت. والطالحة: يكون إهلاكها بالعذاب بنحو السيف. أو المعنى ما من قرية من قرى الكفار إلا وتخرب إما بالاستئصال بالكلية أو تعذب بعذاب شديد دون ذلك كقتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الأموال، وأخذ الجزية ويفنون العقوبات الأخروية {كَانَ ذٰلِكَ} أي الإهلاك والتعذيب {فِى ٱلْكِتٰبِ} أي اللوح المحفوظ {مَسْطُورًا} أي مكتوباً وقد بين فيه أسباب ذلك ووقته.

وروي عن بعضهم أن خراب مكة من الحبشة، وخراب المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان. وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «آخر قرية من قرى الإسلام خرابا» المدينة.

{وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلآيٰتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلأَوَّلُونَ} أي ما منعنا من إرسال المعجزات التي طلبتها قريش من إحياء الموتى وقلب الصفا ذهباً، وإزالة الجبال عن مكة ليزرعوا مكانها إلا تكذيب الأولين بالمعجزات حين جاءتهم باقتراحهم فيستحقوا عذاب الاستئصال، أي لو أظهر الله تلك المعجزات المقترحة لقريش، ثم لم يؤمنوا بها صاروا مستحقين لعذاب الاستئصال لكن إنزاله على هذه الأمة غير جائز، لأن الله تعالى علم أن فيهم من سيؤمن أو يؤمن أولادهم فلهذه المصلحة ما أجابهم الله تعالى إلى مطلوبهم {وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ} باقتراحهم {ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً} بكسر الصاد أي مبنية لنبوة صالح {فَظَلَمُواْ بِهَا} أي ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بها وأقبلوا أنفسهم للهلاك بعقرها {وَمَا نُرْسِلُ بِٱلآيٰتِ} المقترحة {إِلاَّ تَخْوِيفًا} من نزول العذاب المستأصل على المقترحين فإن لم يخافوا ذلك نزل أو ما نرسل بغير مقترحة كالمعجزات وآيات القرآن إلا تخويفاً بعذاب الآخرة، فإن أمر المكذبين بها مؤخر إلى يوم القيامة {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ} أي واذكر يا أشرف الخلق إذ بشرناك بأن الله يغلب أهل مكة ويقهرهم ويظهر دولتك عليهم، وهذه بشارة بوقعة بدر وعبر الله بالماضي، لأن كل ما أخبر الله بوقوعه فهو واجب الوقوع فكان كالواقع {وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِى أَرَيْنٰكَ} ليلة المعراج وهي ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم على اليقظة بعيني رأسه من عجائب الأرض والسماء {إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ} أي إلا امتحاناً لأهل مكة لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر لهم قصة الإسراء فمنهم من كذبه ومنهم من كفر

بعد إسلامه ومنهم من نافق ومنهم من توقف في حاله ومنهم من تردد في قلبه ومنهم من صدق كلامه صلى الله عليه وسلم وازداد المخلصون إيماناً {وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ} أي المذمومة {فِى ٱلْقُرْءَانِ} وهي الزقوم أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس حيث قالوا: إن محمداً يزعم أن نار جهنم تحرق الحجارة، ثم يقول: ينبت فيها الشجر فكيف تنبت في النار شجرة رطبة وهي تحرق الشجر، فينسبون لله العجز عن خلق شجرة في النار غافلين عن قدرته تعالى على كل شيء، فإن النعامة تبتلع الجمر والحديد المحمّى بالنار ولا يحرقها، وأن السمندل وهي دويبة في بلاد الترك يتخذ من وبره مناديل فإذا اتسخت طرحت في النار فيذهب وسخها وتبقى هي سالمة لا تعمل فيها النار {وَنُخَوِّفُهُمْ} بشجرة الزقوم وبعذاب الدنيا والآخرة {فَمَا يَزِيدُهُمْ} ذلك التخويف {إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا} أي إلا تمادياً في المعصية وتجاوزاً عن الحد فلو أنا أرسلنا بما اقترحوه من الآيات لازدادوا تمادياً في العناد فأهلكوا بعذاب الاستئصال كعادة من قبلهم وقد حكمنا بتأخير العقوبة العامة لهذه الأمة إلى الطامة الكبرى.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ} الذين كانوا في الأرض { ٱسْجُدُواْ لآدَمَ} بوضع الجبهة عليه، إما هو المسجود له أو هو قبلة للسجود والمسجود له هو الله تعالى {فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ} وكان داخلاً تحت الأمر بالسجود لأنه مندرج تحت زمرتهم {قَالَ} عندما وبخه الله تعالى: {أَءَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} أي من طين. {قَالَ} أي إبليس بعد الاستنظار: {أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ} أي أخبرني عن هذا الذي فضلته علي بأمرك لي بالسجود له لم فضلته علي وأنا خير منه من حيث أنا مخلوق من العنصر العالي {لَئِنْ أَخَّرْتَنِ} حياً {إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ} أي لأستأصلنهم بالإغواء أو لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحبلها {إِلاَّ قَلِيلاً} لا أقدر أن أقاوم شكيمتهم.

قرأ ابن كثير «أخرتن» بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بالحذف. وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباته في الوصل دون الوقف. {قَالَ} تعالى له: { ٱذْهَبْ} أي امضِ لشأنك الذي اخترته. واعلم {فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ} أي من ذرية آدم في دينك {فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ} أي جزاؤك ومن تبعك {جَزَاءً مَّوفُورًا} أي مكملاً فكل معصية توجد يحصل لإبليس مثل وزر ذلك العامل لأنه هو الأصل فيها فلذلك يخاطب بالوعيد. {وَ ٱسْتَفْزِزْ} أي استزل {مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ} استزلاله {بِصَوْتِكَ} أي بدعائك إلى معصية الله تعالى {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} أي واجمع عليهم مصحوباً بجنودك الركاب والمشاة، فروى أبو الضحى عن ابن عباس أنه قال: كل راكب أو ماش في معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس وجنوده. وقرأ حفص عن عاصم «ورجلك» بكسر الجيم. وقرأ غيره بالضم أو بالسكون. {وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلأَمْوٰلِ} أي في كل تصرف قبيح فيها {وَٱلأَوْلٰدِ} أي في الأفعال القبيحة والحرف الذميمة والأديان الزائغة والأسماء المنكرة {وَعِدْهُمْ} أي بالأماني الباطلة {وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطٰنُ إِلاَّ غُرُورًا} أي ما يعدهم من الأماني الكاذبة إلا لأجل الغرور. وهذه الجملة اعتراض واقع بين الجمل التي خاطب الله بها الشيطان. {إِنَّ عِبَادِى} المخلصين {لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ} أي غلبة وقدرة على إغوائهم {وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً} أي حفيظاً. فإن الشيطان وإن كان قادراً على الوسوسة فإن الله أرحم بعباده فهو يدفع عنهم كيد الشيطان {رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ} أي الذي يسوق لمنافعكم السفن على وجه البحر {لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ} أي رزقه تعالى بالتجارة وغيرها {إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} حيث سهل عليكم ما يعسر من أسباب ما تحتاجون إليه {وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ} أي خوف الغرق {فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ} أي ذهب عن خواطركم ما كنتم تعبدون من دون الله {إِلاَ إِيَّاهُ} تعالى فتسألون من الله تعالى النجاة لأنكم تعلمون أنه لا ينجيكم سواه. {فَلَمَّا نَجَّكُمْ} من الغرق وأخرجكم من البحر {إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ} عن الشكر والتوحيد ورجعتم إلى الإشراك، {وَكَانَ ٱلإِنْسٰنُ كَفُورًا} أي منكراً لنعم الله. {أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ} أي أنجوتم من هول البحر فأمنتم أن نغور البر بكم. {جَانِبَ ٱلْبَرِّ} الذي أنتم فيه ونصيركم تحت الثرى كما خسف بقارون. {أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ} من فوقكم {حَاصِبًا} أي ريحاً ترمي حجارة كما أرسل على قوم لوط {ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً} أي حافظاً يحفظكم من ذلك {أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ} أي في البحر {تَارَةً أُخْرَىٰ} بأسباب تلجئكم إلى أن تركبوه وإن كرهتم {فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا} أي كاسراً {مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم} بعد كسر فلككم في البحر {بِمَا كَفَرْتُمْ} أي بسبب إشراككم وكفرانكم لنعمة الإنجاء {ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} أي ثائراً يطالبنا بما فعلنا بكم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو هذه الخمسة «أن نخسف»، «أو نرسل»، «أن نعيدكم»، «فنرسل»، «فنغرقكم» بنون العظمة على سبيل الالتفات. والباقون بياء الغيبة.

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ} بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على ما في الأرض والتمتع به والتمكن من الصناعات والعلم

والنطق وتناول الطعام باليد وغير ذلك {وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ} على الدواب وغيرها {وَ ٱلْبَحْرِ} على السفن {وَرَزَقْنَٰهُمْ مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ} أي من أنواع المستلَذات الحيوانية كاللحم والسمن واللبن والنباتية، كالثمار والحبوب {وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} أي فضلناهم على غير الملائكة تفضيلاً عظيماً بالعقل والقوى المدركة التي يتميز بها الحق من الباطل والحسن من القبيح فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ويستعملوا قواهم في تحصيل العقائد الحقة {يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ} أي بمن اقتدوا به.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه ينادى يوم القيامة: يا أمة إبراهيم، يا أمة موسى، يا أمة عيسى، يا أمة محمد، فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم، ثم ينادى يا أتباع فرعون، يا أتباع نمروذ، يا أتباع ثمود». وقال الضحاك وابن زيد: أي بكتابهم الذي أنزل عليهم فينادي في القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل. وقال الربيع وأبو العالية والحسن: أي بكتاب أعمالهم كأن يقال: يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر. وقيل: بمذاهبهم فيقال: يا حنفي، يا شافعي، يا معتزلي، يا قدري، ونحو ذلك. وقرىء «يدعي كل أناس» على البناء للمفعول. {فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُ بِيَمِينِهِ} وهم أولو البصائر في الدنيا {فَأُوْلَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ} الذي أعطوه تبجحاً بما سطر فيه من الحسنات {وَلاَ يُظْلَمُونَ} أي لا ينقصون من أجور أعمالهم المكتوبة في كتبهم {فَتِيلاً} أي قدر فتيل، وهو القشرة التي في شق النواة {وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلآخِرَةِ أَعْمَىٰ} أي من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرة الله في خلق السموات والأرض والبحار، والجبال، والناس، والدواب، وعن الشكر عن النعم المذكورة في الآيات المتقدمة فهو في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ويستولي الخوف والدهشة على قلبه فيثقل لسانه عن قراءة كتابه. {وَأَضَلُّ سَبِيلاً} من الأعمى لتعطل الآلات بالكلية {وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ} أي إن الشأن قاربوا أن يزيلوك عن حكم القرآن {لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ} أي لتكذب علينا غير الذي أوحينا إليك {وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً} أي لو اتبعت أهواءهم لكنت ولياً لهم ولخرجت من ولايتي. قال ابن عباس في رواية عطاء: قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه شططاً وقالوا: متعنا باللات سنة وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ولم يجبهم، فكرروا ذلك الالتماس وقالوا: إنا

نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم فإن كرهت ما نقول وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل: الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وداخلهم الطمع، فصاح عليهم عمر وقال: أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه فأنزل الله تعالى هذه الآية {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً} أي لولا تثبيتنا إياك على الحق بعصمتنا إياك لقاربت أن تميل إليهم شيئاً يسيراً فيما طلبوك {إِذًا} لو قاربت الميل من قلبك {لأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ} أي لصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة، {ثُمَّ} إذا أذقناك العذاب المضاعف {لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} أي أحداً يخلصك من عذابنا.

{وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ} أي ليستزلونك {مِنَ ٱلأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً} أي وإذا لو أخرجوكَ لا يلبثون بعد إخراجك إلا زماناً قليلاً حتى نهلكهم.

قال ابن عباس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا: يا أبا القاسم إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مسكن إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام آمنا بك واتبعناك وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله، فنزلت هذه الآية، فرجع، ثم قتل منهم بني قريظة وأجلي بني النضير بعذر من قليل وعلى هذا فالآية مدنية. والمراد بالأرض: أرض المدينة، وهذا قول الكلبي:

وقال قتادة ومجاهد: هَمَّ المشركون أن يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى أمره بالهجرة، فخرج بنفسه، فأهلكوا ببدر بعد هجرته صلى الله عليه وسلم. وعلى هذا فالآية مكيه والمراد بالأرض: أرض مكة. وهذا اختيار الزجاج. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة «خلفك» بفتح الخاء وسكون اللام. والباقون «خلافك» بكسر الخاء وفتح اللام مع المد {سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا} أي سننا سنته فيمن قد أرسلنا قبلك أي إن عادة الله أن يهلك كل قوم أخر جوانبيهم من بينهم {وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً} أي تغييراً أي إن ما أجرى الله تعالى به العادة لا يقدر أحد أن يبدل تلك العادة {أَقِمِ

ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ} أي لأجل زوال الشمس عن كبد السماء {إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ} أي إلى اجتماع ظلمة الليل وهو وقت صلاة العشاء. والمعنى أقم الصلاة من وقت زوال الشمس إلى ظلمة الليل بأن تديم كل صلاة في وقتها فيدخل في هذا الظهر والعصر والمغرب. {وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ} أي أقم صلاة الفجر {إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} تحضره الملائكة الكاتبون والحفظة، فإنهم يتعاقبون على ابن آدم في صلاة الصبح وصلاة العصر وتشهده شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضياء، وتبدل النوم بالانتباه، فتشهد العقول بأنه لا يقدر على تقليب كلية هذا العالم إلا الخالق المدبر بالحكمة البالغة، وتشهده الجماعة الكثيرة.

{وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ} أي وقم بعض الليل فاترك النوم في ذلك الوقت للصلاة. وقيل: المعنى تهجد بالقرآن بعض الليل أي صل في ذلك بالقرآن {نَافِلَةً لَّكَ} أي زيادة لك في كثرة الثواب وارتفاع الدرجات مختصة بك فإن كل طاعة يأتي بها النبي صلى الله عليه وسلم سوى المكتوبة لا يكون تأثيرها في كفارة الذنوب ألبتة، لأن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بل يكون تأثيرها في زيادة الدرجات وكثرة الثواب، فلهذا سميت نافلة بخلاف الأمة فإن لهم ذنوباً محتاجة إلى الكفارات فهذه الطاعات لهم لتكفير الذنوب فلهذا السبب قال تعالى: نافلة لك أي إن الطاعات هذه زوائد في حقك لا في غيرك كما نقل عن مجاهد والسدي، ومن قال: إن صلاة الليل كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: معنى نافلة لك أن صلاة الليل فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خاصة بك دون أمتك {عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا} أي إن يقيمك ربك مقاماً محموداً عندك وعند جميع الناس.

وروى أبو هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي». {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ} أي في المدينة {وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ} أي من مكة إليها وذلك حين أمر النبي بالهجرة كما قاله ابن عباس والحسن. أو المعنى وأخرجني من المدينة إلى مكة غالباً عليها بفتحها.

وقيل: الأكمل مما سبق أن يقال: رب أدخلني في الصلاة وأخرجني منها مع الصدق والإخلاص وحضور قلبي بذكرك، ومع القيام بلوازم شكرك. والأكمل من ذلك أن يقال: رب أدخلني في القيام بمهمات أداء شريعتك، وأخرجني بعد الفراغ منها إخراجاً لا يبقى علي منها تبعة والأعلى مما سبق أن يقال: رب أدخلني في

بحار دلائل توحيدك وتنزيهك، ثم أخرجني من الاشتغال بالدليل إلى ضياء معرفة المدلول ومن التأمل في آثار حدوث المحدثات إلى الاستغراق في معرفة الفرد المنزه عن التغيرات. وقيل: رب أدخلني القبر إدخالاً مرضياً وأخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضياً ملقى بالكرامة. {وَ ٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنْكَ سُلْطَٰناً نَّصِيرًا} أي اجعل لي في هذا البلد من لدنك قوة ظاهرة في تثبيت دينك وإظهار شرعك أو اجعل لي من عندك حجة بينة تنصرني بها على جميع من يخالفني {وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ} أي ظهر الإسلام {وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ} أي هلك الشرك وتسويلات الشيطان {إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ} أي أيّ باطل كان {كَانَ} بجبلته {زَهُوقًا} زائلاً على أسرع الوجوه {وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ} من جميع الأمراض الظاهرة والباطنة {وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} لأن القرآن يعلم كيفية اكتساب العلوم العالية والأخلاق الفاضلة التي يصل بها الإنسان إلى قرب رب العالمين {وَلاَ يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا} أي لا يزيد القرآن المشركين إلا هلاكاً بتكذيبهم {وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلإِنْسَٰنِ} بأن وصل الى مطلوبه {أَعْرَضَ} أي اغتر وصار غافلاً عن طاعة الله {وَنَأَى بِجَانِبِهِ} أي تباعد من أهل الحق ولم يقتد بهم تعظماً لنفسه كديدن المستكبرين {وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ} أي أصابه بلاء {كَانَ يَئُوساً} أي قنوطاً من رحمة الله حزيناً ولم يتفرغ لذكر الله تعالى {قُلْ كُلٌّ} أي كل أحد {يَعْمَلُ} عمله {عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ} أي طريقته التي توافق حاله في الهدى والضلالة فإن كانت نفسه طاهرة صدرت عنه أفعال جميلة، وإن كانت نفسه خبيثة صدرت عنه أفعال رديئة {فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً} أي أصوب طريقاً.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ} الذي هو سبب حياة البدن بنفخه فيه {قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى} أي من فعل ربي أو من علم ربي فإنه مما اختص الله تعالى بعلمه.

روي أن اليهود قالوا لقريش: سلوا محمداً عن أصحاب الكهف. وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أجاب عنها جميعاً أو سكت فليس بنبي وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فبين صلى الله عليه وسلم لهم القصتين وأبهم شأن الروح وهو مبهم في التوراة {وَمَآ أُوتِيتُم مِّن ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} فإن عقول الخلق عاجزة عن معرفة حقيقة الروح، وقال بعضهم جاء في الخبر في بعض الروايات أن الله تعالى خلق ثلاثمائة وستين ألف عالم ولكنه جعلها محصورة في عالمين وهما الخلق والأمر كما قال تعالى: {أَلاَ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ} (الأعراف: 45) فعبر عن عالم الدنيا وهو ما يدرك بالحواس الخمس الظاهرة

السمع والبصر، والشم والذوق، واللمس بالخلق. وعبر عن عالم الآخرة وهو ما يدرك بالحواس الخمس الباطنة العقل والقلب والسر والروح والخفي بالأمر فعالم الأمر هو الأوليات التي خلقها الله تعالى للبقاء بمحض الأمر التكويني من غير تحصيل من أصل وهي الروح والعقل والقلم واللوح والعرش والكرسي، والجنة والنار وسمي عالم الأمر أمراً، لأن الله أوجده بلا واسطة شيء بل بأمر كن من لا شيء. ولما كان أمره تعالى قديماً فما يكون بالأمر القديم كان باقياً، وإن كان حادثاً. وسمي عالم الخلق خلقاً، لأنه تعالى أوجده بوسائط شيء مخلوق خلقه للفناء، فمعنى الروح من أمر ربي أنه من عالم الأمر والبقاء لا من عالم الخلق والفناء ا ه. فلا يمكن تعريف الروح بمباديه ولا يحيط بكنهه دائرة إدراك البشر وإنما الممكن هذا القدر الإجمالي ولذا قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُم مّن ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} أي وما أعطيتم من العلم فيما عند الله إلا علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواس {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} من القرآن أي لنزيلن العلم به عن القلوب وعن المصاحف {ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ} أي القرآن {عَلَيْنَا وَكِيلاً} أي من تتوكل عليه في استرداد شيء منه محفوظاً مسطوراً {إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} أي لكن أبقيناه إلى قرب قيام الساعة رحمة من ربك فعند ذلك يرفع من الصدور والمصاحف {إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا} بإبقاء العلم والقرآن عليك وبجعلك سيد ولد آدم وخاتم النبيين وإعطائك المقام المحمود. {قُل} لمن يزعمون أن القرآن من كلام البشر: {لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلإِنسُ وَ ٱلْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ} أي لئن اتفق الإنس والجن والملائكة على أن يأتوا بمثل هذا القرآن؛ في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى لا يقدرون على إتيان مثله، وتخصيص الثقلين بالذكر، لأن المنكر في كونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما، لا لأن غيرهما قادر على المعارضة. {وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} أي معيناً بضم أقوى ما فيه إلى أقوى ما في صاحبه {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا} أي كررنا بوجوه مختلفة توجب زيادة بيان {لِلنَّاسِ} أي لأهل مكة {فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ} المنعوت بالنعوت الفاضلة {مِن كُلِّ مَثَلٍ} أي من كل معنى بديع يشبه المثل في الغرابة ليتلقوه بالقبول {فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ} أي فلم يرض أكثر أهل مكة {إِلاَّ كُفُورًا} أي جحوداً للحق {وَقَالُواْ} عند ظهور عجزهم بالقرآن وغيره من المعجزات الباهرة: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلأَرْضِ} أي أرض مكة {يَنْبُوعًا} أي عيناً لا ينضب ماؤها {أَوْ تَكُونَ لَكَ} وحدك {جَنَّةٌ} أي بستان تستر أشجاره ما تحتها من العرصة {مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ} أي

وأشجار عنب وعبر بالثمرة لأن الانتفاع بغيرها من الكرم قليل {فَتُفَجِّرَ} أي أنت {ٱلأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا} أي وسطها {تَفْجِيرًا} والمراد إجراء الأنهار في وسط البستان عند سقيها أو إدامة إجرائها و «تفجر» الأولى تكون بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم عند عاصم وحمزة والكسائي، وبضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم المشددة عند الباقين. ولم تختلف السبعة في «تفجر» الثانية أنها مشددة. {أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ} بقولك: إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء {عَلَيْنَا كِسَفًا} أي قطعاً بالعذاب {أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَ ٱلْمَلَٰئِكَةِ قَبِيلاً} أي مقابلين ومرئيين لنا {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ} أي ذهب وفضة كامل الحسن {أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ} أي تصعد إليها {وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ} أي لصعودك إلى السماء أصلاً {حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا} من الله {نَّقْرَءُهُ} فيه أنك رسول الله إلينا أي لما ظهر لهم كون القرآن معجزاً التمسوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أنواع من المعجزات كما حكي عن ابن عباس أن رؤساء أهل مكة أرسلوا إلى رسول الله وهو جلوس عند الكعبة فأتاهم فقالوا: يا محمد إن أرض مكة ضيقة فسيّر جبالها لننتفع بها وفجر لنا فيها عيوناً نزرع فيها فقال: «لا أقدر عليه» فقال قائل منهم: أوَتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً؟ فقال: «لا أقدر عليه». فقيل: أوَيكون لك بيت من زخرف فيغنيك عنا؟ فقال: «لا أقدر عليه» فقيل له: أما تستطيع أن تأتي قومك بما يسألونك؟ فقال: «لا أستطيع». قالوا: فإذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً. فقال: عبد الله بن أمية المخزومي وهو ابن عاتكة عمته صلى الله عليه وسلم: لا أومن بك أبداً حتى تشد سلماً إلى السماء فتصعد فيه ونحن ننظر إليك فتأتي بنسخة منشورة معك بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة، ثم بعد ذلك لا أدري أنؤمن بك أم لا؟ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً فأنزل الله تعالى هذه الآية {قُلْ}. وقرأ ابن كثير وابن عامر «قال» بصيغة الماضي: {سُبْحَٰنَ رَبِّى} أي أنزه ربي عن أن يكون له إتيان وذهاب وأتعجب من اقتراحاتهم {هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً} أي مأموراً من قبل ربي بتبليغ الرسالة كسائر الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات {وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ} أي أهل مكة {أَن يُؤْمِنُوٓاْ} بنبوتك {إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ} أي القرآن {إِلاَّ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} إلينا أي وما منع الناس من الإيمان وقت مجيء

الوحي إلا اعتقادهم أن الله تعالى لو أرسل رسولاً إلى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة وإنكارهم أن يكون من جنس البشر.

{قُل} لهم من جهتنا جواباً لقولهم: {لَوْ كَانَ فِى ٱلأَرْضِ مَلَٰئِكَةٌ يَمْشُونَ} عليها {مُطْمَئِنِّينَ} أي قارين فيها من غير أن يعرجوا في السماء {لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً} أي لو كان أهل الأرض ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة أما لو كان أهل الأرض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر لتمكنهم من الاجتماع والفهم منه لمماثلتهم له في الجنس {قُلْ} لهم: {كَفَىٰ بِٱللَّهِ} وحده {شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ} بأني رسوله إليكم {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} أي محيطاً ببواطن أحوالهم وظواهرها، أي فإنكم إنما أنكرتم هذا لمحض الحسد والاستنكاف من الانقياد للحق {وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ} بحذف الياء من الرسم هنا، وفي الكهف. وأما في النطق فقرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء وصلاً وحذفها وقفاً. وحذفها الباقون في الحالين. {وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ} أي أنصاراً {مِن دُونِهِ} تعالى يهدونهم إلى طريق الحق أي فمن سبق لهم حكم الله بالإيمان وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال وأن يوجد من يصرفهم عنه {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ} فقد روي أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم». {عُمْيًا} لا يبصرون ما يسر أعينهم {وَبُكْمًا} لا ينطقون ما يقبل منهم {وَصُمًّا} لا يسمعون ما يلذ مسامعهم {مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ} أي سكن لهبها بعد أكل جلودهم ولحومهم بأن لم يبق فيهم ما تتعلق به النار {زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} أي توقداً بإعادة الجلود واللحوم ولعل ذلك عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد أخرى ليروها عياناً حيث لم يعلموها برهاناً {ذَٰلِكَ} العذاب {جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِأايٰتِنَا} الدالة على صحة الإعادة دلالة واضحة {وَقَالُواْ} منكرين لقدرتنا {أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا} أي تراباً رميماً {أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} أي بعثاً جديداً {أَوَلَمْ يَرَوْاْ} أي ألم يتفكروا ولم يبصروا بعيون قلوبهم {أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ} أي يعيد بالإحياء {مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ} أي وقتاً معلوماً عند الله لا شك فيه عند المؤمنين وهو يوم القيامة {فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ} أي لم يقبل المشركون بعد هذه الدلائل الظاهرة {إِلاَّ كُفُورًا} أي جحوداً للأجل.

{قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى} أي خزائن رزقه التى أفاضها على كافة الموجودات {إِذًا لأمْسَكْتُمْ} ما ملكتم {خَشْيَةَ ٱلإِنفَاقِ} أي مخافة الفقر فلا فائدة في إسعافكم بذلك المطلوب الذي التمستموه {وَكَانَ ٱلإِنْسَٰنُ قَتُورًا} أي بخيلاً {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايٰتٍ بَيِّنَاتٍ} أي واضحات الدلالة على نبوته وهي اليد والعصا، والجراد والقمل، والضفادع والدم، والطوفان والسنون، ونقص الثمرات {فَ سْـَٔلْ بَنِى إِسْرٰءِيلَ} أي فاسأل يا أشرف الرسل بني إسرائيل الذين كانوا في زمانك عن موسى فيما جرى بينه وبين فرعون وقومه، ليظهر صدق ما ذكرته عند المشركين، فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد. وهذه الجملة اعتراضية بين العامل والمعمول {إِذْ جَآءَهُمْ} أي حين جاء موسى بني إسرائيل الذين كانوا في زمانه عليه السلام وهذا الظرف متعلق بآتينا فأظهر ما آتيناه من الآيات عند فرعون وبلغه ما أرسل به {فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّى لأظُنُّكَ يٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا} أي مغلوب العقل {قَالَ} لفرعون: {لَقَدْ عَلِمْتَ}. قرأ الكسائي بضم التاء. والباقون بفتحها، فالضم قراءة على والفتح قراءة ابن عباس {مَآ أَنزَلَ هَٰؤُلاۤءِ} الآيات علىَّ {إِلاَّ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ بَصَآئِرَ} أي أدلة ظاهرة يستدل بها على صدقي ولكنك تنكرها للحَسد وحب الدنيا {وَإِنِّى لأظُنُّكَ} أي لأعلمك {يٰفِرْعَونُ مَثْبُورًا} أي ملعوناً ممنوعاً من الخير {فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم} أي أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه {مِّنَ ٱلأَرْضِ} بالقتل {فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا} في البحر {وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ} أي من بعد إغراقه {لِبَنِى إِسْرٰءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلأَرْضَ} أي أرض الشام ومصر {فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلآخِرَةِ} أي البعث بعد الموت {جِئْنَا بِكُمْ} من قبوركم إلى المحشر {لَفِيفًا} أي مختلطين أنتم وهم فيختلط جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر، ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم {وَبِ لْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِ لْحَقِّ نَزَلَ} أي ما أردنا بإنزال القرآن إلا إثبات الحق وكما أردنا هذا المعنى فكذلك حصل هذا المعنى ووصل إليهم بعد إنزاله عليك ليس فيه تبديل أو يقال: وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحكمة المقتضية لإنزاله وما نزل إلا ملتبساً بما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ونحوها. {وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ} يا أفضل الخلق {إِلاَّ مُبَشِّرًا} للمطيع بالثواب {وَنَذِيرًا} للعاصي بالعقاب فهؤلاء الجهال الذين اقترحوا عليك تلك المعجزات وتمردوا عن قبول دينك لا شيء عليك من كفرهم {وَقُرْءانًا فَرَقْنَاهُ}.

وقرأ العامة بتخفيف الراء، أي بينا حلاله وحرامه أو فرقنا فيه بين الحق والباطل، وقرأ علي وجماعة من الصحابة وغيرهم

بالتشديد أي فرقنا آياته بين أمر ونهي وحكم وأحكام، ومواعظ وأمثال، وقصص وأخبار ماضية ومستقبلة. أو نزلناه مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة، أو في عشرين سنة على الخلاف في تقارن النبوة والرسالة وتعاقبهما {لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ} بضم الميم وفتحها أي على تأن لتكون الإحاطة على دقائقه وحقائقه أسهل {وَنَزَّلْنَٰهُ} من عندنا {تَنْزِيلاً} متفرقاً آية وآيتين وثلاثاً وهكذا بحسب ما تقتضيه الحكمة وما يحصل من الواقعات {قُلْ} للذين اقترحوا تلك المعجزات: {ءَامِنُواْ بِهِ} أي القرآن {أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ} فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً وامتناعكم عن الإيمان به لا يورثه نقصاً {إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ} أي من قبل نزول القرآن منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي {إِذَا يُتْلَىٰ} أي القرآن {عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ} أي يسقطون على وجوههم بغاية الخوف {سُجَّدًا} لله شكراً على إنجاز وعده في تلك الكتب من بعثتك ونزول القرآن {وَيَقُولُونَ} في سجودهم {سُبْحَانَ رَبِّنَآ} أي تنزيهاً له عن خلف وعده {إِن} أي إن الشأن {كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا} بإنزال القرآن وبعث محمد صلى الله عليه وسلم {لَمَفْعُولاً} أي منجزاً {وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ} للسجود لما أثر فيهم من مواعظ القرآن {يَبْكُونَ} من خشية الله {وَيَزِيدُهُمْ} أي القرآن أو البكاء أو السجود أو المتلو {خُشُوعًا} أي تواضعاً لله كما يزيدهم يقيناً بالله تعالى {قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ} أي سموا المعبود بحق بهذا الاسم. قال ابن عباس: سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول في سجوده: «يا الله يا رحمٰن». فقال أبو جهل: إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية أي إن شئتم قولوا: يا الله، وإن شئتم قولوا: يا رحمٰن {أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلأَسْمَآءَ ٱلْحُسْنَىٰ} أي أيّ هذين الاسمين سميتم فهو حسن، لأن للمسمى بذلك الأسماء الحسنى. ومعنى حسن أسماء الله كونها مفيدة لمعاني التحميد والتقديس والتمجيد والتعظيم وعلى صفات الجلال والكمال {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ} أي بقراءة صلاتك {وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا} أي بقراءتها. روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى إليه ولا تجهر بصلاتك فيسمع المشركون فيسبوا الله عدواً بغير علم، ولا تخافت بها فلا تسمع أصحابك {وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ} أي اطلب بين الجهر والمخافتة {سَبِيلاً} أي أمراً وسطاً. روي أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة وكان أبو بكر يخفي

صوته بالقراءة في صلاته، وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: «لِمَ تخفي صوتك؟» فقال: أناجي ربي وقد علم حاجتي وقال لعمر: «لم ترفع صوتك؟» فقال: أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلاً، وعمر أن يخفض صوته قليلاً.

{وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا} كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا: عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله فكل من له ولد وهو محدث محتاج فلا يقدر على كمال الأنعام فلا يستحق كمال الحمد وكل من له ولد يمسك جميع النعم لولده، فإذا لم يكن له ولد أفاض تلك النعم على عبيده، فلو كان له تعالى ولد لكان منقضياً فلا يقدر على كمال الأنعام في كل الأوقات فلا يستحق الحمد على الإطلاق {وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ} أي في الألوهية كما يقوله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة، لأنه لو كان معه إله آخر لتصرف في الموجودات فلا يعرف حينئذ أن هذه النعم حصلت منه أو من شريكه فلا يعرف كونه مستحقاً للحمد والشكر. {وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ} أي ناصر منه لأنه لو جاز عليه ناصر من أجل المذلة لم يجب شكره لجواز أن يكون غيره تعالى حمله على الأنعام أو منعه منه {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} فالتحميد يجب أن يكون مقروناً بالتكبير والتكبير يكون في ذاته تعالى بأن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته، وأنه غني عن كل ما سواه وفي صفاته بأن يعتقد أن كل صفة له فهو من صفات الجلال والكمال، والعز والعظمة، وكل واحد من تلك الصفات لا نهاية له وإن كل صفة له قديمة سرمدية منزَّهة عن التغير وفي أفعاله كأن يقول: إنا نحمد الله ونكبره عن أن يجري في سلطانه شيء لا على وفق حكمه وإرادته، فالكل واقع بقضاء الله وقدرته وإرادته وفي أحكامه بأن يعتقد أنه ملك مطاع فلا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه يعز من يشاء ويذل من يشاء، وفي أسمائه بأن لا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المنزهة، ثم ينبغي للعبد بعد أن يبالغ في التكبير والتنزيه والتحميد والطاعة مقدار عقله وفهمه أن يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله، ولسانه لا يفي بشكره وأعضاءه لا تفي بخدمته فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافياً بكنه مجده وعزته. وروي أن قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها، وعن عمرو بن شعيب كان رسول صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه {وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ} الآية واسأل الله الرحمة قبل الموت، وعند الموت،

وبعد الموت إنه تعالى ناشر العظام بعـد المـوت وسـامع الصـوت. حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله العلـي العظيـم آمين.

سورة الكهف

مكية، غير آيتين، ذكر فيهما عيينة بن حصن الفزاري، وهي مائة وإحدى عشرة آية، وكلماتهـا ألـف وخمسـمائة وسبع وسبعون، وحروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ} وهو الإعلام بثبوت الحمد لله وإنشاء الثناء بذلك { ٱلَّذِى أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ} محمد صلى الله عليه وسلم { ٱلْكِتَٰبَ} أي القـرآن {وَلَـمْ يَجْعَـل لَّـهُ عِوَجَـا} أي اختلالاً في النظم وتنافياً في المعنـى، وهـو كامـل فـي ذاتـه وهـذه الجملة معطوفة على أنزل {قَيِّماً} أي وجعله قائماً بمصالح العبـاد وأحكام الدين. وقيل: هاتان الجملتان حالان مـن الكتـاب متواليـان أي غير مجعول له عوجاً قيمـاً {لِّيُنْـذِرَ} تعـالى بالكتـاب الكـافرين {بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّـدُنْهُ} أي عـذاباً شـديداً نـازلاً مـن عنـده تعـالى {وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي المصدقين به. وقرأ حمزة والكسائي بفتـح الياء وسكون الموحدة وضم الشين { ٱلَّذِينَ يَعْمَلُـونَ ٱلصَّـلِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} فـي الجنـة {مَّـاكِثِينَ فِيـهِ أَبَـدًا} أي خالـدين فـي الأجر من غير انتهاء {وَيُنْذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا} وهم كفـار العرب الذين يقولون: الملائكة بنات اللـه، واليهـود القـائلون عزيـر ابن الله، والنصارى القائلون المسيح ابن الله {مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْـمٍ وَلاَ لأبَآئِهِمْ} أي ليس لهم ولا لأحد من أسلافهم الـذين قلـدوه علـم بهذا القول أهو صواب أو خطأ بل إنما قـالوه رميـاً عـن جهال ة مـن غير فكر {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْـوَاهِهِمْ} فكلمـة بالنصـب علـى التمييز وبالرفع على الفاعلية فعلى النصب يكـون فاعـل «كـبرت» مضمراً مفسراً بما بعده وهو للـذم، والمخصـوص بالـذم محـذوف تقديره: كـبرت الكلمـة، كلمـة خارجـة مـن أفـواههم تلـك المقالـة الشنعاء. والنصب أقوى وأبلغ، وفيـه معنـى التعجـب أي مـا أكبرهـا كلمـة {إِن يَقُولُـونَ إِلاَّ كَـذِبًا} أي مـا يقولـون فـي ذلـك الشـأن إلا مقولاً كذباً {فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَـىٰ ءَاثَٰرِهِـمْ}. والمـراد بـالترجي النهي عن الغم أي لا تهلـك نفسـك بـالغم مـن بعـد إعراضـهم عـن الإيمان بك {إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ} أي بهذا القـرآن {أَسَـفاً} أي لفرط الحزن {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلأَرْضِ} حيواناً كـان أو نباتـاً أو معدناً {زِينَةً لَّهَـا} أي الأرض ليتمتـع بهـا النـاظرون مـن المكلفيـن

وينتفعوا بها نظراً واستدلالاً فإن العقارب والحيات من حيث تذكيرهما لعذاب الآخرة من نوع المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته {لِنَبْلُوَهُمْ} أي لنعاملهم معاملة من يختبرهم {أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً} أي أيهم أطوع لله وأشد استمراراً على خدمته {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا} أي الأرض من المخلوقات قاطبة عند تناهي عمر الدنيا {صَعِيداً جُرُزاً} أي تراباً لا نبات فيه {أَمْ حَسِبْتَ} أي أظننت {أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا} أي من بين آياتنا {عَجَبًا} أي آية ذات عجب وفي الآيات أي آثار قدرة الله تعالى ما هو أعجب من ذلك وهي السماء والأرض والشمس والقمر، والنجوم والجبال والبحار. و«عجباً» خبر كان و «من آياتنا» حال منه، والكهف: هو الغار الواسع في الجبل، والرقيم: كلب أصحاب الكهف. وقيل: هو لوح رصاصي أو حجري كتبت فيه أسماؤهم وقصتهم وجعل على باب الكهف وهم كانوا فتية من أشراف الروم، أرادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم.

{إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ} ظرف ل «عجباً»، أي حين التجأ الشبان إلى الكهف {فَقَالُواْ} عقب استقرارهم فيه: {رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً} خاصة تستوجب المغفرة والرزق والأمن من الأعداء، {وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} أي يسّر لنا من أمرنا الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب {فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ} أي فعقب هذا القول ألقينا على آذانهم حجاباً يمنع من أن تصل إلى أسماعهم الأصوات الموقظة من نومهم {فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} أي معدودة، وفي الكهف حال من المضاف إليه. {ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ} أي أيقظناهم من نومهم الثقيل {لِنَعْلَمَ} أي لنعاملهم معاملة من يختبرهم {أَيُّ الحِزْبَيْنِ} أي المختلفين في مدة لبثهم {أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُواْ أَمَدًا} أي ضبط غاية لبثهم فيظهر لهم عجزهم ويفوضون ذلك إلى العليم الخبير ويتعرفون ما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم، فيزدادون يقيناً بكمال قدرته تعالى وعلمه، ويستبصرون به أمر البعث، ويكون ذلك لطفاً لمؤمني زمانهم وآية بينة لكفارهم. فالمراد بالحزبين نفس أصحاب الكهف و«أحصى» فعل ماض و«أمداً» مفعول به. وقرىء «ليعلم» بالياء مبنياً للمفعول ومبنياً للفاعل من الأعلام أي ليعلم الله الناس أي الحزبين أحصى الخ {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ} يا أشرف الخلق {نبَأَهُم بِـ ٱلْحَقِّ} أي على وجه الصدق {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ} أي جماعة من الشبان {ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ} بالتحقيق لا بالتقليد {وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى} أي بأن ثبتناهم على ما كانوا

عليه من الدين {وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ} أي قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والإخوان، واجترأوا على الرد على دقيانوس الجبار {إِذْ قَامُواْ} أي حين انتصبوا لإظهار شعار الدين أو وقت قاموا بين يدي الملك دقيانوس الكافر فإنه كان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبت الله تعالى هؤلاء الفتية حتى عصوا ذلك الجبار، وأقروا بربوبية الله تعالى، وصرحوا بالبراءة من الشركاء {فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَٰهاً} أي لن نعبد أبداً معبوداً آخر {لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا} أي والله لئن عبدنا غيره لقد قلنا حينئذ قولاً زوراً على الله. قال أصحاب الكهف عند خروجهم من عند الملك دقيانوس الكافر: {هَٰؤُلاۤءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ} أي عبدوا {مِن دُونِهِ ءَالِهَةً} ف «قومنا» عطف بيان لاسم الإشارة أو خبر له و «اتخذوا» حال منه. {لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ} أي هلا يأتون على عبادتهم بحجة ظاهرة، وهذا إنكار وتعجيز وتبكيت لهم {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا} أي فليس أحد أظلم ممن افترى على الله. كذباً بنسبة الشريك إليه تعالى فإن الحكم بثبوت الشيء مع عدم الدليل عليه ظلم وافتراء على الله وهذا من أعظم الدلائل على فساد القول بالتقليد. قال بعض الفتية لبعض وقت اعتزالهم: {وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ} أي وإذ أردتم اعتزالهم واعتزال الشيء الذي تعبدونه {إِلاَّ ٱللَّهَ فَأْوُواْ إِلَى ٱلْكَهْفِ} أي التجئوا إليه وهذا جواب إذ {يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ} أي يبسطها عليكم في الدارين {وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقًا} أي ويسهل لكم من أمركم الذي أنتم عليه من الفرار بالدين ما تنتفعون به غدا. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية مرفقاً بفتح الميم وكسر الفاء والجمهور بالعكس.

{وَتَرَى ٱلشَّمْسَ} خطاب لكل أحد بيان لحالهم بعد ما صاروا إلى الكهف وهذا ليس إخباراً بوقوع الرؤية تحقيقاً بل الأخبار بكون الكهف بحيث لو أبصرته تبصر الشمس {إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ}. قرأ ابن عامر «تزور» ساكنة الزاي مشدد الراء. ونافع وابن كثير وأبو عمر «تزاور» بتشديد الزاي وبالألف. وعاصم وحمزة والكسائي «تزاور» بالتخفيف والألف أي تميل، {عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ} أي جانب الكهف الذي يلي المغرب فلا يقع عليهم شعاع الشمس. {وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ} أي تعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال الذي يلي المشرق فإن الله منع ضوء الشمس من الوقوع عليهم وذلك خارق للعادة وكرامة عظيمة خصَّ الله بها أصحاب الكهف. {وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ} أي والحال أنهم في فضاء متسع من الكهف معرض لإصابة الشمس {ذَٰلِكَ} أي المذكور من

إنامتهم وحمايتهم من إصابة الشمس لهم في ذلك الغار تلك المدة الطويلة {مِنْ ءَايَاتِ ٱللَّهِ} العجيبة على كمال علمه وقدرته وعلى وحدته {مَن يَهْدِ ٱللَّهُ} إلى الحق بالتوفيق له {فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ} أي الذي أصاب الفلاح مثل أصحاب الكهف {وَمَن يُضْلِلْ} الله {فَلَن تَجِدَ لَهُ} أبداً {وَلِيًّا مُّرْشِدًا} أي ناصراً يهديه إلى الفلاح كدقيانوس الكافر وأصحابه. {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا} أي لو رأيتهم أيها الخاطب لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر {وَهُمْ رُقُودٌ} أي نيام {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ} لينال النسيم جميع أبدانهم ولئلا يتأثر ما يلي الأرض منها بطول المكث، فالله قادر على حفظهم من غير تقليب ولكن جعل لكل شيء سبباً في أغلب الأحوال {وَكَلْبُهُمْ بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ} أي بموضع الباب من الكهف وكان الكلب أنمر، أو أصفر، أو أصهب، أو أحمر، أو أسمر. واسمه: قطمير أو ريان، أو تتوه، أو قطمور، أو ثور، أو حمران، وكان لواحد منهم فلما خرجوا تبعهم فمنعوه، فأنطقه الله وتكلم وقال: أنا أحب أحباب الله فمكنوه من الذهاب معهم، فلما ناموا نام كنومهم، ولما استيقظوا استيقظ معهم، ولما ماتوا مات معهم {لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ} أي لو شاهدتهم {لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا} أي لأدبرت عنهم هرباً بما شاهدت منهم {وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} أي خوفاً يملأ الصدر لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة فكل من رآهم فزع فزعاً شديداً. وقرأ نافع وابن كثير «لملئت» بتشديد اللام. وروي أيضاً عن ابن كثير بالتخفيف كالجمهور. وقرأ السوسي بإبدال الهمزة ياء وقفاً ووصلاً، وحمزة في الوقف فقط. وقرأ ابن عامر والكسائي «رعباً» بضم العين في جميع القرآن. والباقون بالإسكان. {وَكَذَٰلِكَ} أي كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلى آية دالة على كمال قدرتنا {بَعَثْنَٰهُمْ} أي أيقظناهم من النوم بعد مضي ثلاثمائة سنة وتسع سنين {لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ} أي ليسأل بعضهم بعضاً في مدة لبثهم {قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ} هو رئيسهم واسمه «مكسلمينا»: {كَم لَبِثْتُمْ} أي كم مقدار مكثكم في منامكم في هذا الغار {قَالُواْ} أي بعضهم: {لَبِثْنَا يَوْمًا} لأنهم دخلوا الكهف غدوة، ثم ناموا طلوع الشمس وكان انتباههم آخر النهار فلما خرجوا فنظروا إلى الشمس وقد بقي منه شيء قالوا: {أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ} أي بعض آخر منهم وهو «مكسلمينا»: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} فأنتم لا تعلمون مدة لبثكم {فَٱبْعَثُواْ أَحَدَكُمْ} هو تمليخا كما قاله ابن إسحاق {بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ} وهي منبج أو أفسوس بضم الهمزة هذا في الجاهلية وتسمى في الإسلام طرسوس بفتح الراء {فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ} أي أيّ أهلها {أَزْكَىٰ طَعَامًا} أي أبعد عن كل حرام لأن ملكهم كان ظالماً

وعامة أهل بلدهم كانوا مجوساً وفيهم قوم يخفون إيمانهم {فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ} أي بطعام {مِّنْهُ} أي من ذلك الأزكى. {وَلْيَتَلَطَّفْ} أي وليرفق في الشراء كي لا يغبن وفي دخول المدينة لئلا يعرف {وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} أي لا يخبرن بمكانكم أحداً من أهل المدينة فإن ذلك يستلزم شيوع أخباركم.

{إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ} أي إن يطلعوا على أنفسكم أو على مكانكم {يَرْجُمُوكُمْ} أي يقتلوكم بالرجم {أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ} أي يصيّروكم إلى ملتهم كرهاً {وَلَن تُفْلِحُواْ} أي لن تسعدوا {إِذًا} أي إن دخلتم فيها ولو بالكره {أَبَدًا} أي في الدنيا والآخرة {وَكَذٰلِكَ} أي وكما أنمناهم وبعثناهم {أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ} أي أطلعنا الناس المؤمنين والكافرين على أحوالهم، وكان ملكهم يومئذ مسلماً يسمى يستفاد وذلك أن دقيانوس مات وانقضت قرون، ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح واختلف أهل مملكته في الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا: إنما تحشر الأرواح دون الأجساد، فإن الجسد تأكله الأرض. وقال بعضهم: تبعث الأرواح والأجساد جميعاً وكبر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدري كيف يبين أمر البعث لهم حتى دخل بيته وأغلق بابه ولبس المسوح وقعد على الرماد، وتضرَّع إلى الله تعالى في طلب حجة وبرهان، فأعثره الله على أهل الكهف فإنهم لما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها استنكر شخصه واستنكر ورقه، لأنه ظهرت في بشرة وجهه آثار عجيبة تدل على أن مدته قد طالت طولاً خارجاً عن العادة، لأن ورقه كان على ضرب دقيانوس فاتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك وكان صالحاً قد آمن هو ومن معه فلما نظر إليه قال: لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك فقد كنت أدعو الله أن يرينيهم، وسأل الفتى، فأخبره بأنه ومن معه خرجوا فراراً من الملك دقيانوس فسَّر الملك بذلك وقال لقومه: لعل الله قد بعث لكم آية فلنسر إلى الكهف معه، فركب مع أهل المدينة إليهم فلما دنوا إلى الكهف قال تمليخا: أنا أدخل عليهم لئلا يرعبوا فدخل عليهم وأعلمهم بأن الأمة أمة مسلمة فخرجوا إلى الملك وعظموه وعظمهم، ثم رجعوا إلى كهفهم ورجع من شك في بعث الأجساد فهذا معنى أعثرنا عليهم {لِيَعْلَمُواْ} أي الذين أعثرناهم وهم الملك ورعيته على أحوالهم العجيبة {أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ} بالبعث للروح والجثة معاً {حَقٌّ} أي صادق بطريق أن القادر على إنامتهم مدة طويلة وإبقائهم على حالهم بلا غذاء قادر على إحياء الموتى. قال بعض العارفين: علامة اليقظة بعد النوم علامة البعث بعد الموت {وَأَنَّ

ٱلسَّاعَةَ} أي وقت بعث الخلائق جميعاً للحساب والجزاء {لاَ رَيْبَ فِيهَا} أي لا شك في قيامها {إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ} في صحة البعث وهذا ظرف لقوله تعالى: {أَعْثَرْنَا} لا لقوله {لِيَعْلَمُواْ} أي أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمرهم ليرتفع الخلاف ويتبين الحق {فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِمْ بُنْيَٰنًا} أي لما أعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا، فعاد الفتية إلى كهفهم، فأماتهم الله تعالى فقال بعضهم: ابنوا على باب كهفهم بنياناً لئلا يتطرق إليهم الناس ضناً بتربيتهم. {رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} كأن المتنازعين لما رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم من حيث النسب والاسم، ومن حيث العدد، ومن حيث اللبث في الكهف قالوا ذلك تفويضاً للأمر إلى علام الغيوب {قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ} وهم الملك والمسلمون أو أولياء أصحاب الكهف أو رؤساء البلد {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا} نعبد الله فيه ونستبقي آثارهم بسبب ذلك المسجد {سَيَقُولُونَ} أي يقول بعض المتنازعين لك يا أشرف الخلق؛ وهم اليهود أو السيد وأصحابه؟ وهم اليعقوبية من نصارى نجران: هم {ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ} أي النصارى أو العاقب وأصحابه؛ وهم النسطورية منهم: هم {خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِٱلْغَيْبِ} أي ظناً بالغيب من غير دليل ولا برهان {وَيَقُولُونَ} أي المسلمون أو الملكانية من النصارى: هم {سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل} يا أشرف الخلق {رَّبِّيۤ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ} من الناس وكان علي رضي الله عنه يقول: كانوا سبعة وأسماؤهم: تمليخا، مكشلينا مشليتيا، هؤلاء الثلاثة أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش برنوش شاذنوش، وكان الملك يستشير هؤلاء الستة في أمره، والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسمه كفشطيطيوش، واسم كلبه: قطمير. وقال ابن عباس: هم سبعة مكسلمينا تمليخا مرطونس، نينونس ساربونس، ذونوانس فليستطيونس وهو الراعي. وعن ابن مسعود كانوا تسعة وسماهم ابن إسحاق: تمليخا مكسملينا، محسلينا مرطونس، كسوطونس سورس، يكربوس بطسوس قالوس اه. وقال ابن عباس: رضي الله عنهما، خواص أسماء أهل الكهف تنفع لتسعة أشياء: للطلب، والهرب، ولطف الحريق، تكتب على خرقة وترمى في وسط النار تطفأ بإذن الله تعالى، ولبكاء الطفل، والحمى المثلثة، وللصداع: تشد على العضد الأيمن. ولأم الصبيان، وللركوب في البر والبحر، ولحفظ المال، ولنماء العقل ونجاة الآثمين. {فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ} أي فلا تجادل معهم في عدد الفتية {إِلاَّ مِرَآءً ظَٰهِرًا} بأن لا تكذبهم في تعيين ذلك العدد بل تقول هذا

التعيين لا دليل عليه {وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً} أي لا تشاور أحداً من أهل الكتاب في شأن الفتية {وَلاَ تَقُولَنَّ} يا أكرم الرسل {لِشَيْءٍ} أي لأجل شيء تعزم عليه {إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ} الشيء {غَداً} أي فيما يستقبل من الزمان {إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ} أي إلا قائلاً: إن شاء الله أي لا تقل لشيء في حال من الأحوال إلا في حال تلبسك بالتعليق بالمشيئة بأن تقول: إن شاء الله نزلت هذه الآية حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين فسألوهصلى الله عليه وسلم فقال: «ائتوني غداً أخبركم» . ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبته قريش {وَ ٱذْكُر رَّبَّكَ} بالتسبيح والاستغفار {إِذَا نَسِيتَ} كلمة الإستثناء. وهذا مبالغة في الحث على ذكر هذه الكلمة {وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا} أي لعل ربي يؤتيني أعظم دلالة على صحة نبوتي من نبأ أصحاب الكهف.

{وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَ ٱزْدَادُواْ تِسْعًا} وهذا إخبار من الله عن مدة لبثهم رداً على أهل الكتاب المختلفين فيها فقال بعضهم: ثلاثمائة، وبعضهم ثلاثمائة وتسع، والسنون عندهم شمسية. فهذان القولان غير ما أخبر الله به من أن السنين ثلاثمائة وتسع قمرية والتفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين، لأن السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية عشرة أيام وإحدى وعشرين ساعة وخمس ساعة.

قرأ حمزة والكسائي «ثلاثمائة» بغير تنوين فهو مضاف ل «سنين» والباقون بالتنوين «فسنين» عطف بيان. {قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ} أي بالزمان الذي لبثوا فيه في نومهم قبل بعثهم أي الله أعلم بحقيقة ذلك وكيفيته فارجعوا إلى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب. وهذا إشارة إلى أن الإخبار من الله لا من عنده صلى الله عليه وسلم {لَهُ غَيْبُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي له تعالى علم ما خفي من أحوال أهلهما، لأنه موجدهما ومدبرهما {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} أي ما أبصر الله وما أسمعه بكل شيء وهذا التعجب يدل على أن علمه تعالى بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين لا يحجبه شيء ولا يحول عنه حائل {مَا لَهُم} أي لأهل السمٰوات والأرض {مِّن دُونِهِ} تعالى {مِن وَلِىٍّ} يتولى أمورهم ويقيم لهم تدبير أنفسهم فكيف يعلمون هذه الواقعة من غير إعلامه تعالى {وَلاَ يُشْرِكُ} تعالى {فِى حُكْمِهِ أَحَدًا} فلما حكم تعالى أن لبثهم هو هذا المقدار فليس لأحد أن يقول قولاً بخلافه. وقرأ ابن عامر «لا تشرك» بالتاء على الخطاب لكل أحد وبالجزم على النهي أي ولا تسأل أحداً عما أخبرك الله به من عدة

أصحاب الكهف ومن مدة لبثهم في الغار واقتصر على حكمه تعالى ولا تشرك أحداً في طلب معرفة هذه الواقعة {وَ ٱتْلُ مَآ أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَٰبِ رَبِّكَ} ولا تسمع لقولهم: أئت بقرآن غير هـذا أو بـدله {لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِ} أي لا قادر على تبديلها {وَلَن تَجِدَ مِن دُونِـهِ} تعـالى {مُلْتَحَدًا} أي ملجأ تعدل إليه إن هممت بالتبديل للقـرآن {وَ ٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَـدَاةِ وَ ٱلْعَشِـىِّ} أي يعبـدونه فـي كل الأوقات. قرأ ابن عامر «بالغدوة» بضم الغين وسـكون الـدال. {يُرِيـدُونَ وَجْهَـهُ} أي مريـدين بعبـادتهم لرضـاه تعـالى {وَلاَ تَعْـدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} أي لا تنصرف عيناك عنهـم إلـى غيرهـم {تُرِيـدُ زِينَـةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} أي ترغب في مجالسة الأغنياء وجميل الصورة {وَلاَ تُطِعْ} في تنحية الفقراء عن مجالسك {مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ} أي وجدنا قلبه غافلاً {عَن ذِكْرِنَا} أي عن توحيدنا {وَ ٱتَّبَعَ هَـوَاهُ} فـي عبـادة الأصنام {وَكَانَ أَمْرُهُ} في متابعة الهوى {فُرُطًا} أي ضائعاً نزلـت هذه الآية في عيينة بن حصن الفزاري فـإنه أتـى النـبي صـلى اللـه عليه وسلم قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء منهـم سـلمان الفارسي وعليه شملة قد عرق فيها وبيـده خـوص يشـقه وينسـجه فقال عيينة للنبي أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادة مضر وأشـرافها إن أسلمنا تسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم عنـك حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً وقد أسـلم هـو رضـي اللـه عنـه وحسـن إسـلامه وكـان فـي حنيـن مـن المؤلفـة قلـوبهم فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم منها مائة بعير وكـذلك أعطـي الأقرع بن حابس، وأعطي العباس بن مرداس أربعين بعيـراً. وروى أبو سعيد رضي الله عنه قال: كنت جالساً في عصـابة مـن ضـعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستر بعضاً من العـرى وقـارىء يقـرأ مـن القرآن فجاء رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقـال:«مـاذا كنتـم تصنعون»؟ قلنا: يا رسول الله كان واحد يقرأ من كتاب الله ونحـن نسمع فقال صلى الله عليـه وس لم: «الحمـد لل ه الـذي جعـل مـن أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم» ثـم جلـس وسـطنا وقـال: «أبشروا يا صعاليك المهاجرين بـالنور التـام يـوم القيامـة تـدخلون الجنة قبل الأغنياء بمقدار خمسـين ألـف سـنة» {وَقُـلِ ٱلْحَـقُّ مِـن رَّبِّكُمْ} أي قل لأولئك الغافلين هذا الدين الحق إنمـا أتـى مـن عنـد الله فإن قبلتموه عاد النفع إليكم وإن لم تقبلوه عـاد الضـرر إليكـم ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى والقبح، والحسن والخمـول والشـهرة {فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ} فـالله تعـالى لـم يـأذن فـي طرد من آمن وعمل صالحاً لأجل أن يدخل فـي الإيمـان جمـع مـن الكفار وهذه الصيغة تهديد وليست بتخييـر {إِنَّـا أَعْتَـدْنَا لِلظَّـالِمِينَ}

أي هيأنا لمن أنف عن قبول الحق لأجل أن من قبلوه فقراء {نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} أي فسطاطها فلا مخلص لهم منها {وَإِن يَسْتَغِيثُواْ} من العطش {يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ} أي كدردي الزيت أو كالفضة المذابة {يَشْوِى ٱلْوجُوهَ} أي إذا قرب إلى الفم ليشرب سقطت فروة وجهه {بِئْسَ ٱلشَّرَابُ} ذلك الماء لأن المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ في احتراق الأجسام مبلغاً عظيماً {وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا} أي وساءت النار منزلاً ومجتمعاً للرفقة مع الكفار والشياطين {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً} أي لا نبطل ثواب من أخلص عملاً {أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ} أي من تحت مساكنهم {ٱلأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ} ويسور المؤمن في الجنة بسوار من ذهب وبسوار من فضة، وبسوار من لؤلؤ فيكون في يده هذه الأنواع الثلاثة وفي الحديث الصحيح تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء {وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ} وهو الديباج اللطيف {وَإِسْتَبْرَقٍ} وهو الديباج الصفيق فإن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة {مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلأَرَآئِكِ} أي ويجلسون في الجنة متربعين على السرر في الحجال وهي بيوت تزين بأنواع الزينة أما السرير وحده فلا يسمى أريكة {نِعْمَ ٱلثَّوَابُ} ذلك {وَحَسُنَتْ} أي الأرائك {مُرْتَفَقاً} أي منزلاً ومجتمعاً للرفقة مع الأنبياء والصالحين {وَ ٱضْرِبْ لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ} أي بيّن لهؤلاء الذين يطلبون طرد المؤمنين لضعفهم مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين شريكين في بني إسرائيل أحدهما كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا أو تمليخا لهما ثمانية آلاف دينار، فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضاً بألف دينار فقال صاحبه: اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار وإني أشتري منك أرضاً في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال هذا: اللهم إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني اشتريت منك داراً في الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم تزوج صاحبه امرأة وأنفق عليها ألف دينار فقال هذا: اللهم إني أخطب إليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال هذا: اللهم إني أشتري منك خدماً ومتاعاً في الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم أصابته حاجة شديدة فقال: لو أتيت صاحبي لعله ينالني منه معروف فجلس على طريق حتى مر به في حشمه فقام إليه فنظر إليه صاحبه فعرفه فقال له: فلان، قال: نعم، فقال: ما شأنك؟ قال: أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتعينني بخير قال: فما فعل بمالك فقص عليه

قصته فقال: وإنك لمن المصدقين فطرده ووبخه على التصدق بماله وآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى فنزل في شأنهما قوله تعالى: {وَ ٱضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ} {جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا} وهو الكافر {جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ} أي بستانين من كروم متنوعة {وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ} أي جعلنا النخل محيطاً بالجنتين {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا} أي وسط أرض الجنتين {زَرْعًا} ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه فتأتي هذه الأرض في كل وقت بمنفعة فكانت منافعها متواصلة {كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا} أي أخرجت ثمرها كل عام {وَلَمْ تَظْلِمِ مِّنْهُ} أي لم تنقص من ثمرها {شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا} أي أجرينا في داخل تلك الجنتين {نَهَراً} وفي قراءة يعقوب «وفجرنا» بالتخفيف.

{وَكَانَ لَهُ} أي لصاحب الجنتين {ثَمَرٌ}. قرأ عاصم بفتح الثاء والميم أي ثمر البستان. وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم. والباقون بضم الثاء والميم في الموضعين، أي أنواع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك {فَقَالَ} أي صاحب الجنتين {لِصَٰحِبِهِ} الذي جعل مثلاً للفقراء المؤمنين {وَهُوَ} أي صاحب الجنتين {يُحَاوِرُهُ} أي يراجع صاحبه بالكلام الذي فيه الافتخار بالمال والناس: {أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً} أي أكثر أصحاباً من الأولاد وغيرهم، ويقال: وهو أي صاحبه المؤمن يراجه الكافر في الكلام بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله وبالبعث {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ} أي بستانه مع صاحبه يطوف به فيها ويريه حسنها {وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} أي ضار لها بكفره وعجبه واعتماده على ماله {قَالَ} استئناف بيان لسبب الظلم {مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً} أي ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبداً {وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ} أي القيامة التي هي وقت البعث {قَائِمَةً} أي حاصلة {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى} بالبعث عند قيامة كما تقول {لأَجِدَنَّ} يومئذ {خَيْراً مِّنْهَا} أي من هذه الجنة {مُنْقَلَباً} أي عاقبة وسبب هذه اليمين الفاجرة اعتقاده إنما أعطاه الله المال في الدنيا لكرامته عنده تعالى، وهي معه بعد الموت. وقرأ نافع وابن كثير منهما أي الجنتين. {قَالَ لَهُ} أي لصاحب الجنة {صَٰحِبُهُ} الذي هو المؤمن {وَهُوَ} أي المؤمن {يُحَاوِرُهُ} أي يجاوب الكافر بالتوبيخ على شكه في حصول البعث {أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ} أي من آدم وهو من تراب {ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ} لأبيك وأمك {ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً} أي صيَّرك إنساناً ذكراً، وهيَّأك هيئة تعقل وتصلح للتكليف فهل يجوز في العقل مع هذه الحالة إهماله تعالى أمرك فإن من قدر على بدء خلقه من تراب قادر أن يعيده منه وجعل الكفر بالبعث كفراً بالله، لأن منشأه

الشك في كمال قدرة الله {لَّكِنَّ} أي لكن أنا أقول {هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا} أي أنت كافر بالله لكني مؤمن به موحد، ثم قال المؤمن للكافر: {وَلَوْلاۤ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ} أي وهلا حين دخلت بستانك {قُلْتَ} عند إعجابك بها: {مَا شَآءَ ٱللَّهُ} أي الأمر هو الذي شاءه الله {لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِٱللَّهِ} أي لا قوة لأحد على أمر من الأمور إلا بإعانة الله وإقداره.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى شيئاً فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يصره». {إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا} وخدماً في الدنيا {فعسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ} أي يعطيني في الآخرة {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا} أي على جنتك {حُسْبَانًا} أي ناراً {مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} أي فتصير جنتك أرضاً ملساء لا نبات فيها بحيث تزلق الرجل لكفرك {أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا} أي غائصاً في الأرض {فَلَن تَسْتَطِيعَ} أنت {لَهُ} أي الماء {طَلَبًا} أي حيلة تدركه بها وقوله تعالى: {أَوْ يُصْبِحَ} عطف على قوله تعالى: {فَتُصْبِحُ} وإن كان الحسبان بمعنى النار لأنها الحكم الإلهي بتخريب الجنة فيتسبب عنه صيروتها تراباً أملس، أو صيرورة مائها غائر إثم أخبر الله تعالى أنه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} أي أهلك ثمر بستانه بالكلية وجميع أمواله {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ} أي صار يضرب إحداهما على الأخرى، وإنما يفعل هذا ندامة {عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا} أي في عمارة جنته لأنه أنفق ما يمكن إدخاره من الأموال الكثيرة في مثل هذا الشيء السريع الزوال وقوله: «على ما أنفق» متعلق ب «يقلب» لأنه ضمن معنى يندم كأنه قيل: فأصبح يندم على ما صنع فإنه من عظمت ندامته يصفق إحدى يديه على الأخرى {وَهِىَ} أي الجنة {خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا} أي ساقطة على سقوف الجنة، وهي سقطت على الجدران.

وهذه اللفظة كناية عن هلاك البستان بالكلية {وَيَقُولُ} أي الكافر تلهفاً على تلف المال أي تنبهوا يا قومي : {يٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا} وهذا الكافر تذكر كلام المؤمن وعلم إنما هلكت جنته بشؤم شركة فتمنى أن لا يكون مشركاً فلم يصبه ما أصابه {وَلَمْ تَكُن لَّهُ} أي الكافر {فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ} بدفع الهلاك عن الجنة أو برد الهالك منها أو بإتيان مثله {مِن دُونِ ٱللَّهِ} فإنه وحده قادر على ذلك.

وقرأ حمزة والكسائي و «لم يكن» بالياء التحتية. والباقون بالتاء الفوقية {وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً} أي قادراً بنفسه على واحد من هذه الأمور {هُنَالِكَ ٱلْوَلَيَةُ} أي في مثل ذلك الوقت وفي ذلك

المقام النصرة {لِلَّهِ ٱلْحَقِّ} فلا يقدر عليها أحد. وقرأ حمزة والكسائي «الولاية» بكسر الواو بمعنى الملك فالمعنى أي في تلك الدار الآخرة السلطان لله. والباقون بفتحها أي النصرة. وقرأ أبو عمرو والكسائي «الحق» بالرفع صفة للولاية. وقرأ الباقون بالجر صفة لله أي الثابت الذي لا يزول {هُوَ} تعالى {خَيْرٌ ثَوَابًا} أي إثابة في الآخرة لمن آمن به والتجأ إليه {وَخَيْرٌ عُقْبًا} أي عاقبة لمن رجاه وعمل لوجهه. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ونافع والكسائي وابن عامر بضم القاف. وعاصم وحمزة بتسكينها. وقرىء «عقبى» كرجعى والكل بمعنى العاقبة. {وَ ٱضْرِبْ لَهُم} أي واذكر للذين افتخروا بأموالهم على فقراء المسلمين {مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} أي صفتها العجيبة في فنائها {كَمَآءٍ أَنْزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَ ٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلأَرْضِ} أي اختلط بعض أنواع النبات ببعضها الآخر بسبب هذا الماء أي صار النبات في المنظر في غاية الحسن {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} أي فصار النبات بعد بهجتها يابساً مكسوراً {تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ} أي تفرقه ولم يبق منها شيء. وقرأ حمزة والكسائي الريح بالتوحيد {وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا} أي قادراً على الكمال بتكوينه أولاً وتنميته وسطاً وإبطاله آخراً، فأحوال الدنيا كذلك تظهر أولاً في غاية النضارة، ثم تتزايد قليلاً قليلاً، ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الفناء ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يفرح به { ٱلْمَالُ وَ ٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقراض فيقبح بالعاقل أن يفتخر به {وَ ٱلْبَٰقِيَاتُ ٱلصَّٰلِحَاتُ} أي أعمال الخيرات التي تبقى له ثمرتها أبداً من الصلوات الخمس وأعمال الحج وصيام رمضان والطيب من القول {خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ} أي في الآخرة {ثَوَابًا} فتعود إلى صاحبها {وَخَيْرٌ أَمَلاً} فينال بها صاحبها في الآخرة كل ما كان يرجوه في الدنيا، لأن صاحب تلك الأعمال يأمل في الدنيا نصيبه من ثواب الله في الآخرة. وللغزالي في هذا وجه لطيف فقال: روي أن من قال: سبحان الله حصل له من الثواب عشر حسنات فإذا قال: والحمد لله صارت عشرين فإذا قال: ولا إله إلا الله صارت ثلاثين، فإذا قال: والله أكبر صارت أربعين. وتحقيق القول في ذلك أن أعظم مراتب الثواب هو الاستغراق في معرفة الله وفي محبته فإذا قال: سبحان الله فقد عرف كونه تعالى منزهاً عن كل ما لا يليق به، فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة، فإذا قال مع ذلك والحمد لله فقد أقر بأن الله تعالى مع كونه منزهاً عن كل ما لا ينبغي فهو المبتدىء لإفادة كل ما ينبغي ولإفاضة كل خير وكمال، فإذا قال: مع ذلك ولا إله إلاّ

الله فقد أقر بأنه ليس في الوجود موجود منزه عن كل ما لا ينبغي مبتدىء لإضافة كل ما ينبغي إلا الواحد فإذا قال والله أكبر ومعنى أكبر أي أعظم من أن يصل العقل إلى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة، فكانت درجات الثواب أربعة، فهذه الكلمات الأربع تسمى الباقيات الصالحات.

{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ} أي واذكر لهم حين نسير أجزاء الجبال عن وجه الأرض بعد أن نجعلها غباراً مفرقاً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «تسير الجبال» بالتاء الفوقية بالبناء للمفعول وبرفع الجبال. {وَتَرَى ٱلأَرْضَ} خطاب لكل أحد. وقرىء على صيغة البناء للمفعول {بَارِزَةً} أي ظاهرة ليس عليها ما يسترها من جبال وأشجار وبناء وحيوان وظل وبحار {وَحَشَرْنَٰهُمْ} أي جمعنا الخلائق إلى الموقف من كل أوب للسحاب {فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ} أي لم نترك من الأولين والآخرين {أَحَداً} إلا وجمعناهم لذلك اليوم {وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ} كعرض الجند على السلطان ليقضي بينهم {صَفّاً} أي مصطفين وقد ورد في الحديث الصحيح: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً» وفي حديث آخر: «أهل الجنة مائة وعشرون صفاً أنتم منها ثمانون» ا ه. مقولاً لهم {لَّقَدْ جِئْتُمُونَا} كائنين {كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} حفاة عراة غرلاً بلا أموال وأعوان {بَلْ زَعَمْتُمْ} في الدنيا {أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا} أي وقتاً للبعث {وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ} أي وضع في هذا اليوم كتاب كل إنسان في يده اليمنى إن كان مؤمناً وفي يده اليسرى إن كان كافراً فقد تطايرت الكتب إلى أيدي الخلق مثل الثلج {فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ} أي المشركين والمنافقين {مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} أي خائفين مما في الكتاب من أعمالهم الخبيثة أي يحصل لهم خوف العقاب من الله بذنوبهم وخوف الفضيحة عند الخلق بظهور الجرائم لأهل الموقف {وَيَقُولُونَ} عند وقوفهم على ما في الكتاب من السيئات {يٰوَيْلَتَنَا} أي يا هلكتنا {مَا لِهَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ} أي أيّ شيء له {لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً} من أعمالنا {إِلاَّ أَحْصَاهَا} أي عدها {وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ} في الدنيا من السيئات {حَاضِرًا} أي مكتوباً في صحفهم {وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} فلا ينقص من حسنات أحد ولا يزيد على سيئات أحد {وَإِذَا قُلْنَا} أي واذكر لهم وقت قولنا {لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لآِدَمَ فَسَجَدُوٓاْ} جميعاً امتثالاً بالأمر {إِلاَّ إِبْلِيسَ} فإنه لم يسجد بل تكبر على آدم، لأنه افتخر بأصله {كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ} أي من نوع الجن الذين هم الشياطين فالذي خلق من نار هو أبوهم {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} أي خرج عن طاعته بترك السجود {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ} أي أبعد

ما وجد من إبليس ما وجد تتخذونه وذريته أصدقاء يا بني آدم {مِن دُونِى} فتطيعونهم بدل طاعتي {وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ} أي والحال أن إبليس وذريته لكم أعداء {بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلاً} من الله تعالى في الطاعة إبليس وذريته وعن مجاهد قال: ولد إبليس خمسة بتر والأعور وزلنبور ومشوط، وداسم، فبتر: صاحب المصائب، والأعور: صاحب الزنا زلنبور الذي يفرق بين الناس ويبصر الرجل عيوب غيره ومشوط صاحب الصخب والأخبار يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس ولا يجدون لها أصلاً وداسم الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر اسم الله دخل معه وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه{مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ} أي ما أحضرت إبليس وذريته {خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} فإني خلقتهما قبل خلقهم {وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ} أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض {وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ} للناس وهم الشياطين {عَضُداً} أي أعواناً في شأن الخلق حتى يتوهم شركتهم بي في بعض أحكام الربوبية. والمعنى ما أطلعتهم على أسرار التكوين وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس، فكيف تطيعونهم يا بني آدم: {وَيَوْمَ يَقُولُ} أي واذكر لهم يا أشرف الخلق أحوال المشركين وآلهتهم يوم القيامة إذ يقول الله تعجيزاً. وقرأ حمزة بنون العظمة. {نَادُواْ شُرَكَآئِىَ} أي نادوا آلهتكم التي قلتم: إنهم شركائي { ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ} أي عبدتم ليمنعوكم من عذابي {فَدَعَوْهُمْ} للإغاثة {فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ} إلى ما دعوهم إليه {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم} أي المشركين وآلهتهم {مَّوْبِقاً} أي حاجزاً بعيداً أو وادياً في جهنم من قيح ودم، وذلك أن المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة الملائكة وعزيراً، وعيسى ومريم عليهم السلام دعوا هؤلاء فلم يجيبوهم استهانة بهم، واشتغالاً بأنفسهم، ثم حيل بينهم فأدخل الله تعالى هؤلاء المشركين جهنم، وأدخل عزيراً وعيسى ومريم الجنة، وسار الملائكة إلى حيث أراد الله من الكرامة وحصل بين الكفار ومعبوديهم هذا الحاجز وهو ذلك الوادي {وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُونَ} أي الكافرون {ٱلنَّارَ} من مكان بعيد {فَظَنُّوۤاْ أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا} أي مخالطوها في تلك الساعة من غير تأخير لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها {وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا} أي معدلاً إلى غيرها، لأن الملائكة تسوقهم إليها {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا} أن ذكرنا على وجوه كثيرة {فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ} أي لمنفعتهم {مِن كُلِّ مَثَلٍ} أي من كل نوع من أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان التي هي في الغرابة كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا {وَكَانَ ٱلإِنْسَٰنُ} بجبلته {أَكْثَرَ شَىءٍ جَدَلاً} أي وكان خصومة الإنسان بالباطل أكثر

شيء فيه {وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ} أي أهل مكة {أَن يُؤْمِنُوۤاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ} أي القرآن الهادي إلى الإيمان {وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ} عما فرط منهم من الذنوب {إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلأَوَّلِينَ} أي إلا طلب إتيان سنتنا في الأولين وهو عذاب الاستئصال {أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلاً}. وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بضم القاف والباء. أي أنواعاً من العذاب تتواصل مع كونهم أحياء، والباقون بكسر القاف وفتح الباء أي عياناً. وقرىء بفتحتين أي مستقبلاً. {وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ} إلى الأمم {إِلاَّ مُبَشِّرِينَ} بالثواب على أفعال الطاعة {وَمُنذِرِينَ} بالعقاب على أفعال المعصية {وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} المرسلين {بِٱلْبَٰطِلِ} أي باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات {لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ} أي ليبطلوا بجدالهم الشرائع {وَٱتَّخَذُوۤاْ ءايَاتِى} التي هي معجزات الرسل {وَمَا أُنْذِرُواْ} أي وإنذارهم بالعذاب {هُزُواً} أي سخرية.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِأايٰتِ رَبِّهِ} أي ليس أحد أظلم ممن وعظ بالقرآن {فَأَعْرَضَ عَنْهَا} أي فصرف عن تلك الآيات ولم يتدبرها {وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} أي تغافل عن كفره وذنوبه ولم يتفكر في عاقبته {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً} أي أغطية {أَن يَفْقَهُوهُ} أي مانعة من أن يفهموا القرآن {وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْراً} أي صمماً مانعاً من استماعه {وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَىٰ ٱلْهُدَىٰ} أي إلى التوحيد {فَلَنْ يَهْتَدُوۤاْ إِذاً أَبَداً} أي فلن يوجد منهم اهتداء ألبتة مدة التكليف {وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ} أي البليغ لستر ذنوبهم بالحلم عنها إلى وقت آخر {ذُو ٱلرَّحْمَةِ} بتأخير العقوبة عنهم {لَوْ يُؤَاخِذُهُم} أي لو يريد الله مؤاخذتهم {بِمَا كَسَبُواْ} من الذنوب {لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ} في الدنيا {بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ} أي وقت لهلاكهم {لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ} أي العذاب {مَوْئِلاً} أي مرجعاً فمن يكون مرجعه العذاب فلا يوجد منه الخلاص {وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ} أي وأهل قرى عاد وثمود وأمثالهما {أَهْلَكْنٰهُمْ} في الدنيا {لَمَّا ظَلَمُواْ} أي حين كفروا {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} أي وقتاً معيناً لا يتأخرون عنه.

وقرأ شعبة بفتح الميم واللام أي لهلاكهم، وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام أي لوقت هلاكهم، والباقون بضم الميم وفتح اللام أي لإهلاكنا إياهم {وَإِذْ قَالَ} أي واذكر حين قال {مُوسَىٰ لِفَتٰهُ} يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام؛ وكان يوشع من أشراف بني إسرائيل، وإنما سمي فتى موسى عليه السلام لأنه كان يخدمه، وكان موسى عليه السلام وقع في قلبه أن ليس في الأرض أحد أعلم مني فقال الله: يا موسى إن لي في الأرض عبداً أعبد لي منك وأعلم وهو الخضر، فقال موسى: يا رب

دلني عليه، فقال الله له: خذ سمكاً مالحاً وٱمضِ على شاطىء البحر حتى تلقى صخرة عندها عين الحياة فانضح على السمكة منها حتى تحيا السمكة فثم تلقى الخضر فأخذ حوتاً، فجعله في مكتل فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان {لاَ أَبْرَحُ} أي لا أزال سائراً {حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ} أي ملتقى بحر فارس والروم مما يلي المشرق {أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً} أو أسير زماناً طويلاً أتيقن معه فوات الطلب أو أسير ثمانين سنة {فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا} أي بلغا موضعاً يجتمع فيه موسى وصاحبه الذي كان يقصده وهو الخضر {نَسِيَا حُوتَهُمَا} أي نسيا خبر حوتهما وتفقد أمره وقد جعل فقدانه أمارة لوجدان المطلوب. {وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَباً} أي فأدركته الحياة بسبب برد الماء الذي أصابه فتحرك في المكتل، فخرج منه وسقط في البحر، فاتخذ الحوت في البحر مسلكاً كالسرب. قيل: إن الفتى كان يغسل السمكة لأنها كانت مملحة فطفرت وسارت {فَلَمَّا جَاوَزَا} أي موسى وفتاه مجمع البحرين، وذهباً كثيراً، وألقي على موسى الجوع {قَالَ لِفَتَٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا} الذي بعد مجاوزة الصخرة {نَصَباً} أي تعباً. قيل: إن موسى لم يتعب ولم يجع قبل ذلك {قَالَ} أي فتاه: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ} أي أأبصرت حالنا إذ قمنا عند الصخرة {فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ} أي خبر الحوت {وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ} بدل اشتمال من الهاء أي وما أنساني ذكر أمر الحوت لك إلا الشيطان بوسوسته الشاغلة عن ذلك.

وقرأ حفص بضم الهاء «من أنسانيه». {وَٱتَّخَذَ} أي الحوت {سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا} أي اتخاذاً عجباً وهو كون مسلكه كالسرب فلم يلتئم الماء وجمد ما تحت الحوت منه حتى رجع موسى إليه فرأى مسلكه وكون الحوت قد مات وأكل شقه الأيسر، ثم حيي بعد ذلك {قَالَ} أي موسى: {ذَٰلِكَ} أي الذي ذكرت من أمر الحوت {مَا كُنَّا نَبْغِ} أي الذي كنا نطلبه لأنه أمارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر. وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء وصلاً لا وقفاً، وابن كثير أثبتها في الحالين. والباقون حذفوها في الحالين اتباعاً للرسم. {فَٱرْتَدَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا} أي فرجعا مفتشين آثارهما أو فاقتصا على آثارهما اقتصاصاً حتى آتيا الصخرة {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ} وهو الخضر واسمه: بليابن ملكان، وكنيته أبو العباس؛ وهو من نسل نوح، وكان أبوه من الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا. وروي أنهما وجدا الخضر وهو نائم على وجه الماء وهو مغطى بثوب أبيض أو أخضر،

طرفه تحت رجليه والآخر تحت رأسه فسلم عليه موسى فرفع رأسه واستوى جالساً وقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل فقال له موسى: ومن أخبرك إني نبي بني إسرائيل؟ فقال: الذي أدراك بي ودلّك علي. والصحيح أن الخضر نبي، وذهب الجمهور إلى أنه حي إلى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة {ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا} أي أكرمناه بالنبوة كما قاله ابن عباس {وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} وهو علم الغيوب {قَالَ لَهُ مُوسَىٰ} على سبيل التأدب والتلطف في ظرف الاستئذان {هَلْ أَتَّبِعُكَ} أي أصحبك {عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ} أثبت الياء نافع وأبو عمرو وصلاً لا وقفاً، وابن كثير في الحالين، والباقون حذفوها. {مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً} أي علماً يرشدني في ديني. وقرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح الراء والشين، والباقون بضم الراء وتسكين الشين. قال له الخضر: كفى بالتوراة علماً وببني إسرائيل شغلاً. فقال له موسى: إن الله أمرني بهذا فحينئذ {قَالَ} له الخضر: يا موسى {إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراًوَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً} أي على ما لم تعلم به بياناً وحكمة، أي إنك يا موسى لا تصبر على أمور لم تعلم حقائقها يا موسى إني على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه، أي وهو علم الكشف وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه أي وهو علم ظاهر الشريعة. {قَالَ} له موسى: {سَتَجِدُنِىۤ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِى لَكَ أَمْراً} عطف على «صابراً»، أي ستجدني صابراً على ما أرى منك وغير مخالف لأمرك {قَالَ} له الخضر: {فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى} أي صحبتني {فَلاَ تَسْأَلْنى عَن شَىءٍ} تشاهده من أفعالي ولو منكراً بحسب علمك الظاهر {حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً} أي حتى أبتدىء بإخبارك ببيان ذلك الشيء. وقرأ ابن عامر «فلا تسألن» بالنون المثقلة وبغير ياء. وروي عنه «تسألني» مثقلة مع الياء؛ وهي قراءة نافع، وقرأ باقي السبعة بسكون اللام وتخفيف النون، وقرأ أبو جعفر هنا «تسلن» بفتح السين واللام وتشديد النون من غير همز.

{فَٱنطَلَقَا} أي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل يطلبان السفينة، وأما يوشع فقد صرفه موسى إلى بني إسرائيل أو كان معهما وإنما لم يذكر في الآية لأنه تابع لموسى فاكتفى بذكر المتبوع عن التابع. فالمقصود ذكر موسى والخضر {حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا} أي ثقبها الخضر. وعن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: «مرت بهم سفينة فكلموا أهلها أن يحملوهم فعرفوا الخضر بعلامة فحملوهم بغير نول فلما لجوا أي وصلوا إلى الماء الغزير أخذ الخضر فأساً وأخرج بها لوحاً من

السفينة». {قَالَ} له موسى: {أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا} أي لتغرق أنت أهل هذه السفينة، وقرأ حمزة والكسائي «ليغرق أهلها» بالياء المفتوحة وفتح الراء ورفع «أهلها». {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} أي لقد فعلت شيئاً عظيماً شديداً على القوم. روي أن الماء لم يدخل السفينة. وروي أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشى به الخرق {قَالَ} له الخضر: {أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراًقَالَ} موسى {لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ} أي بما تركت من وصيتك أول مرة أو هذا من التورية وإيهام خلاف المراد فيتقي موسى بها الكذب مع التوصل إلى الغرض وهو بسط عذره في الإنكار، فالمراد بما نسيه شيء آخر غير الوصية لكنه أوهم أنها المنسية {وَلاَ تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْراً} أي لا تكلفني مشقة في أمر صحبتي إياك فقبل الخضر عذر موسى فخرجا من السفينة {فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا} بين قريتين لم يبلغ الحنث يلعب مع عشر صبيان كان وضيء الوجه اسمه «خيشور» فأخذه الخضر {فَقَتَلَهُ} بذبحه مضطجعاً بالسكين أو بفتل عنقه {قَالَ} له موسى: {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً} أي بريئة من الذنوب {بِغَيْرِ نَفْسٍ} أي بغير قتل نفس محرمة. وقرأ نافع وابن كثيرون وأبو عمرو بألف بعد الزاي وبتخفيف الياء، والباقون بالتشديد وبدون ألف. {لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً} أي لقد فعلت فعلاً منكراً.

{قَالَ} الخضر {أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ} يا موسى زاد الخضر لك هنا تقريعاً لموسى وتحاملاً في الخطأ {إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً} قيل: إن يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه {قَالَ} موسى: {إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا} أي بعد هذه المرة {فَلاَ تُصَاحِبْنِى} أي لا تجعلني صاحبك. وقرىء لا تصحبني بضم التاء وسكون الصاد {قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْراً} أي قد وجدت من قبلي عذراً حيث خالفتك ثلاث مرات، قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم في بعض الروايات بتخفيف النون وضم الدال، وفي بعض الروايات عن عاصم بضم اللام وسكون الدال. روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك ولو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب» {فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ} بعد الغروب في ليلة باردة ممطرة وهي أنطاكية أو أبرقة { ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا} أي طلبا من أهلها الخبز على سبيل الضيافة فإقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد. وعن أبي هريرة قال: أطعمتهما امرأة من أهل بربرة بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعوا لنسائهم ولعنا رجالهم فقوله تعالى:

«استطعما» جواب «إذا» أو صفة ل «قرية». {فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا} عن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاماً {فَوَجَدَا فِيهَا} أي القرية {جِدَاراً} مائلاً {يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ} أي يقرب من السقوط وكان ارتفاعه مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعاً وامتداده على وجه الأرض خمسمائة ذراع {فَأَقَامَهُ} أي رفعه الخضر بيده فاستقام أو مسحه بيده فاستوى أو هدمه ثم بناه {قَالَ} موسى: {لَوْ شِئْتَ} يا خضر {لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً} أي طلبت على عملك أجرة تصرفها إلى تحصيل المطعوم، وتحصيل سائر المهمات أي كان ينبغي لك أن تأخذ منهم جعلاً على فعلك لتقصيرهم فينا مع حاجتنا وليس لنا في إصلاح الجدار فائدة فهو من فضول العمل. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً» قيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر أنها حجة على موسى وعتب عليه، وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم؟ فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك للقبطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار نودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر؟ {قَالَ} له الخضر: {هَـذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ} أي هذا الإنكار على ترك الأجر سبب فراق حصل بيني وبينك {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً} السين للتأكيد لا للاستقبال لعدم تراخي التنبئة أي أظهر لك بيان وجه ما لم تصبر عليه أي حكمة هذه الأمور الثلاثة قبل فراقي لك.

{أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ} التي خرقتها {فَكَانَتْ لِمَسٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ} فيعيرون بالناس مؤاجرين للسفينة لحمل الأمتعة ونحوها كانت لعشرة إخوة من المساكين ورثوها من أبيهم خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر فأما العمال منهم. فأحدهم: كان مجذوماً. والثاني: كان أعور. والثالث: كان أعرج. والرابع: كان آدر. والخامس: كان محموماً لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم. والخمسة: الذين لا يطيقون العمل أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون وكان البحر الذي يعملون فيه ما بين فارس والروم {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} أي أن أجعلها ذات عيب {وَكَانَ وَرَآءَهُم} أي أمامهم كما قرأ به ابن قرأ بذلك ابن عباس وابن جبير. {مَّلِكٌ} كافر اسمه: هدد بن بدد أو جلندى ابن كرر. {يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ} صحيحة كما قرأ بذلك ابن عباس وابن جبير. {غَصْباً} من أصحابها ولم يكن عندهم علم به فلذلك ثقبتها فإذا جاوزوا الملك أصلحوها {وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ} الذي قتلته {فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ} من عظماء تلك

القرية اسم الأب كازبرا واسم الأم سهوا. {فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا} أي فخفنا أن يحمل الوالدين المؤمنين {طُغْيَٰناً وَكُفْراً} لمحبتهما له.

وقرىء «فخاف ربك» أي كره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر أن يلحق الوالدين معصية وكفراً، أو يقال: فعلم ربك أن يوقعهما في الكفر، وقيل: إن أبويه فرحا به حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وقيل: كان الغلام رجلاً كافراً لصاً قتالاً فمن ذلك قتله الخضر، وكان اسمه: جيسور {فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَوٰةً} أي صلاحاً وطهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة {وَأَقْرَبَ رُحْماً} أي عطفاً بأبويه وأوصل رحماً بأن يكون أبر بهما. قال ابن عباس: أبدلا بنتاً ولدت نبياً وهو الذي كان بعد موسى الذي قالت له بنو إسرائيل: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله وكان اسمه: شمعون. وقرأ أبو عمرو ونافع بفتح الباء وتشديد الدال، هنا وفي التحريم وفي القلم. وقرأ ابن عامر في إحدى الروايتين عن أبي عمرو «رحماً» بضم الحاء. {وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ} الذي سويته {فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ} هما أصرم وصريم ابنا كاشح وأمهما دنيا {فِى ٱلْمَدِينَةِ} وهي المعبر عنها أولاً بالقرية تحقيراً لها لخسة أهلها وعبر عنها هنا بالمدينة تعظيماً لها من حيث اشتمالها على هذين الغلامين وأبيما {وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا} عن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كان ذهباً وفضة» رواه البخاري في تاريخه، والترمذي والحاكم، وقيل: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن: وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب: وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح: وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل: وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحاً} وهذا يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء وقد روي أن الله يحفظ الصالح في سبعة من ذريته {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا} أي قوتهما وكمال رأيهما {وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا} أي دفينهما من تحت الجدار ولولا أني أقمته لا نقض وخرج الكنز من تحته وضاع بالكلية {رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} مفعول له وعامله «أراد» أي نعمة لهما من ربك أو عامله مقدر أي فعلت هذه الأفعال وحياً من ربك. {وَمَا فَعَلْتُهُ} أي ما فعلت ما رأيت من هذه الأحوال {عَنْ أَمْرِى} أي عن اجتهادي ورأيي {ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً} أي ذلك الأجوبة الثلاثة تفسير ما لم تصبر

عليه من الوقائع الثلاثة وحذف التاء بعد السين هنا للتخفيف. روي أن موسى عليه السلام لما أراد أن يفارق الخضر قال له: أوصني، قال: لا تطلب العلم لتحدث به، واطلبه لتعمل به. وقيل: إن الخضر لما أراد أن يفارق موسى قال له موسى: أوصيني، قال: كن بساماً ولا تكن ضحاكاً، ودع اللجاجة ولا تمش في غير حاجة، ولا تعب على الخطائين خطاياهم، وابك على خطيئتك با ابن عمران. {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ} أي يسألك يا أشرف الخلق أهل مكة عن خبر ذي القرنين: اسمه: إسكندر بن فيلفوس اليوناني، كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة، وألبسه الهيبة، وكان وزيره الخضر. والصحيح أنه لم يكن نبياً وإنما كان ملكاً صالحاً عادلاً ملك الأقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم، ودانت له البلاد وكان داعياً إلى الله. {قُلْ} لهم في الجواب: {سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً} أي سأذكر لكم من حال ذي القرنين خبراً مذكوراً. «والسين» للتأكيد وللدلالة على التحقق.

{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى ٱلأَرْضِ} أي إنا جعلنا له قدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وعلى الأسباب حيث سخر له السحاب وبسط له النور، وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير في الأرض {وَآتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ} يحتاج إليه في إصلاح ملكه {سَبَباً} أي طريقاً يوصله إلى ذلك الشيء المقصود كآلات السير وكثرة الجند {فَأَتْبَعَ سَبَباً} أي فأخذ طريقاً يوصله إلى استقصاء بقاع الأرض ليملأها عدلاً {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ} أي منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يمكن أحد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له: أوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبدأ الأطوال {وَجَدَهَا} أي الشمس {تَغْرُبُ} في رأى العين {فِى عَيْنٍ} أي بحر محيط {حَمِئَةٍ} أي ذات طين أسود شديد السخونة كما يدل عليه قراءة شعبة وحمزة والكسائي وابن عامر حامية بألف بعد الحاء وبياء بعد الميم، وهي قراءة ابن مسعود وطلحة {وَوَجَدَ عِندَهَا} أي عند تلك العين {قَوْماً} كفاراً لباسهم جلود الوحوش وطعامهم ما يلفظه البحر من السمك {قُلْنَا} بإلهام: {يٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ} بالقتل {وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً} أي أمراً ذا حسن بأن تتركهم أحياء. {قَالَ} أي ذو القرنين: {أَمَّا مَن ظَلَمَ} نفسه باستمراره على الكفر {فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ} بالقتل بعد طول الدعاء إلى الإسلام {ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ} في الآخرة {فَيُعَذِّبُهُ} فيها {عَذَاباً نُّكْراً} أي شديداً وهو عذاب النار {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ} بسبب

دعوتي {وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَلَهُ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ}. قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بنصب «جزاء» أي فله الجنة في الآخرة من جهة الجزاء. وقرأ الباقون برفعه والإضافة أي فله في الدارين جزاء الفعلة الحسنى التي هي الإيمان والعمل الصالح {وَسَنَقُولُ لَهُ} أي لمن آمن {مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً} أي قولاً سهلاً مما نأمره به من الزكاة والخراج وغيرهما ولا نأمره بالصعب الشاق {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً} أي ثم أخذ ذو القرنين طريقاً نحو المشرق من جهة الجنوب {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ} أي موضع طلوعها من معمورة الأرض {وَجَدَهَا} أي الشمس {تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ} هم الزنج {لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا} أي الشمس {سِتْراً} من اللباس فيكونون عراة أبداً فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم {كَذَلِكَ} أي أمر ذي القرنين فيهم كأمره في أهل المغرب فحكم في أهل المطلع كما حكم في أهل المغرب من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين {وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً} أي وقد علمنا بما كان عند ذي القرنين من الخبر {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً} أي ثم سلك ذو القرنين طريقاً معترضاً بين المشرق والمغرب آخذاً نحو الروم من الجنوب إلى الشمال {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ} أي بين الجبلين العاليين الأملسين فلا يستطاع الصعود عليهما في آخر بلاد الترك مما يلي المشرق ويسمى كل منهما سداً، لأنه سد فجاج الأرض {وَجَدَ مِن دُونِهِمَا} أي من ورائهما مجاوزاً عنهما {قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً} أي أمة من الناس لا يقربون يفهمون قول غيرهم لقلة فطنتهم، وفي قراءة حمزة والكسائي ضم الياء وسكون الفاء وكسر القاف أي لا يفهمون الناس كلامهم لغرابة لغتهم وهم من أولاد يافث وذو القرنين من أولاد سام. قال أهل التاريخ: أولاد نوح عليه السلام ثلاثة: سام، وحام، ويافث. أما سام: فهو أبو العرب والعجم والروم. وأما حام: فهو أبو الحبشة والزنج والنوبة. وأما يافث: فهو أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج {قَالُواْ} لذي القرنين بواسطة ترجمان ممن هو مجاورهم، ويفهم كلامهم، أو بغير ترجمان على أن فهم ذي القرنين كلامهم وإفهام كلامه إياهم من جملة ما أعطاه الله تعالى من الأسباب : {يٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلأَرْضِ} أي في أرضنا يأكلون كل شيء أخضر، ويحملون كل شيء يابس، ويقتلون أولادنا؛ وسمى يأجوج ومأجوج لكثرتهم. وروى حذيفة حديثاً مرفوعاً: «أن يأجوج أمة ومأجوج أمة فكل أمة أربعة آلاف أمة لا يموت الواحد منهم حتى ينظر ألف ذكر من صلبه كلهم قد حملوا السلاح وهم من ولد آدم

يسيرون إلى خراب الدنيا وهم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال شجر الصنوبر طوله عشرون ومائة ذراع في السماء، وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومائة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية» {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً}. وفي قراءة حمزة والكسائي بفتح الراء مع مده، والباقين بسكون الراء فقيل: الخرج. ما كان على كل رأس. والخراج: ما كان على البلد، وقيل: الخرج ما كان بالتبرع. والخراج: ما يلزم أداؤه. {عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ} أي يأجوج ومأجوج {سَدًّا} أي حاجزاً بين هذين الجبلين فلا يصلون إلينا {قَالَ} ذو القرنين: {مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ} أي ما جعلني فيه ربي قادراً من المال الكثير والملك الواسع وسائر الأسباب خير مما تعرضون علي من الجعل فلا حاجة بي إليه.

وقرأ ابن كثير «مكنني» بفك الإدغام {فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ} أي بآلات الحدادين وبصناع يحسنون البناء والعمل {أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} أي حاجزاً حصيناً وبرزخاً متيناً وهو أكبر من السد وأوثق {ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ} بمد الهمزة أي أعطوني قطع الحديد الكبيرة. وقرأ حمزة «ائتوني» بوصل الهمزة في الموضعين، ووافقه أبو بكر هنا وخالفه في الموضع الثاني، والمعنى جيئوني بزبر الحديد، ف «زبر» على قراءة همزة الوصل منصوبة على إسقاط الخافض وحفر ذو القرنين الأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما وكان طوله مائة فرسخ {حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ} أي بين طرفي الجبلين بالبناء أي إنهم جاءوا ذا القرنين بزبر الحديد فشرع يبني شيئاً فشيئاً حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لها في السمك وكان ارتفاعه مائتي ذراع وعرضه خمسين ذراعاً ووضع المنافخ والنار حول ذلك {قَالَ} للعملة: {ٱنفُخُواْ} بالكيران في الحديد المبني فنفخوا {حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً} أي إذا جعل الحديد مثل النار {قَالَ} للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة ونحوها: {آتُونِى} أي أعطوني نحاساً مذاباً {أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً} أي أصب على الحديد المحمى نحاساً مذاباً فأفرغه عليه فدخل مكان الحطب والفحم فامتزج بالحديد والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً وهذه كرامة عظيمة حيث صرف الله تأثير

الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين والمفرغين للقطر {فَمَا ٱسْطَٰعُواْ} بحذف تاء بعد السين أي فلم يقدر يأجوج ومأجوج {أَن يَظْهَرُوهُ} أي أن يعلوا ظهر الجبل لارتفاعه وملاسته {وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُ نَقْبًا} أي خرقاً من أسفله لصلابته وثخنه، لأنه كان خمسين ذراعاً وكان ارتفاعه مائتي ذراع وكان طول السد على وجه الأرض مائة فرسخ ومسيرة الفرسخ ساعة ونصف، فتكون مسيرة السد مائة وخمسين ساعة مسيرة اثني عشر يوماً ونصف.

{قَالَ} أي ذو القرنين لمن عنده: {هَٰذَا} السد {رَحْمَةٌ} أي نعمة عظيمة {مِّن رَّبِّى} على جميع الخلق {فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى} أي وقت وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج {جَعَلَهُ} أي هذا السد {دَكَّآءَ} بالمد أي أرضاً مستوية. وقرىء «دكاً» أي مكسوراً حتى يصير تراباً {وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى} بخروجهم وقت قرب الساعة {حَقّاً} أي صدقاً {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ} أي صيرنا بعض يأجوج ومأجوج يوم خروجهم من السد يختلط ببعضهم الآخر من شدة الازدحام عند خروجهم لكثرتهم، وذلك عقب موت الدجال فينحاز عيسى بالمؤمنين إلى جبل الطور فراراً منهم. روي أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ولا يصلون إلى من تحصن منهم بورد أو ذكر ويحبس نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار فيتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء فيسلط الله تعالى دوداً في أنوفهم أو آذانهم فيموتون به، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلاّ ملأه رممهم ونتنهم، فيتوجه نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله تعالى فيرسل سبحانه وتعالى عليهم طيراً فتلقيهم في البحر، ثم يرسل مطراً يغسل الأرض حتى تصير كالمرآة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الغنم والإبل حتى إن اللقحة لتكفي الجماعة الكثيرة فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى عليهم ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة {وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ} نفخة ثانية للبعث {فَجَمَعْنَٰهُمْ} أي يأجوج ومأجوج وغيرهم {جَمْعاً} أي جمعاً عجيباً بعد ما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضاً} أي أظهرناها لهم مع قربهم منها يوم إذ جمعنا الخلائق كافة إظهاراً هائلاً فذلك يجري مجرى عقابهم لحصول

الغم العظيم بسبب رؤيتها وسماعها تغيظاً وزفيراً { لَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ} أي أعين قلوبهم في الدنيا {فِى غِطَآءٍ} أي غشاوة كثيفة {عَن ذِكْرِى} على وجه يليق بشأني وعن كتابي فلا يهتدون به {وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً} إلى قراءة القرآن فلا يؤمنون به. {أَفَحَسِبَ لَّذِينَ كَفَرُواْ} أي كفروا بي مع جلالة شأني فظنوا {أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِى} من الملائكة وعيسى وعزير {أَوْلِيَآءَ} أي معبودين ينصرونهم من عذابي. والمعنى أفظنوا أنهم ينتفعون بمن عبدوه من عبادي مع إعراضهم عن تدبر الآيات السمعية والمشاهدة.

وقرأ أبو بكر «أفحسب الذين كفروا» بسكون السين ورفع الباء، وذكر أنه قراءة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أي أفكافيهم اتخاذهم ذلك من دون طاعتي {إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلاً} أي منزلاً {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلاً} في الآخرة { لَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ} أي بطل عملهم {فِى لْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} متعلق بسعيهم لا بضل وذلك كالعتق، والوقف، وإغاثة الملهوف، لأن الكفر لا تنفع معه طاعة {وَهُمْ يَحْسَبُونَ} أي والحال أنهم يظنون {أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} أي يحسنون في أعمالهم بالإتيان بها على وجه اللائق ويحسبون أنهم ينتفعون بآثارها. قيل: المراد بهم أهل الكتابين. وقيل: الرهبانية الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة وجملة وهم يحسبون حال من فاعل ضل، وهو أولى من كونها حالاً من المضاف إليه {أُوْلَٰئِكَ لَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ} أي بدلائله الداعية إلى توحيده عقلاً ونقلاً {وَلِقَائِهِ} أي وكفروا بالبعث بعد الموت وبرؤيته تعالى في الآخرة {فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} أي بطلت لإنكارهم الدلائل {فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ لْقِيَٰمَةِ وَزْناً} أي فلا نجعل لمن حبطت أعمالهم حبوطاً كلياً يوم القيامة قدر إبل نزدري بهم فليس لهم عندنا قيمة أصلاً ولا يوزن من خيراتهم قدر ذرة {ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ} أي ذلك الذي ذكرناه من أنواع الوعيد هو جزاؤهم {جَهَنَّمُ} عطف بيان للخبر {بِمَا كَفَرُواْ وَ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى} الدالة على وحدانيتي {وَرُسُلِى} المؤيدين بالمعجزات {هُزُواً} أي مهزوءاً بهما {إِنَّ لَّذِينَ ءَامَنُواْ} بآيات ربهم ولقائه {وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَاتِ} من الأعمال {كَانَتْ لَهُمْ} فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده {جَنَّٰتُ لْفِرْدَوْسِ نُزُلاً} أي منزلاً خبر كانت ولهم متعلق بمحذوف حال من نزلاً {خَٰلِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً} أي لا يطلبون تحولاً إلى غيرها وهذا يدل على غاية الكمال فلا مزيد عليها في خيرات الجنة حتى يريد أشياء غيرها، فإن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجة كانت من

السعادات فهو طامح الطرف إلى ما هو أعلى منها. وعن كعب أنه قال: ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام، والفردوس أعلاها. وفيها الأنهار الأربعة فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإن فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» {قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى} أي قل يا أشرف الخلق لو كان ماء البحر مداد التحرير كلمات علم ربي وحكمته لنفد البحر مع كثرته في كتابتها ولم يبق منه شيء لتناهيه من غير أن تنفد كلمات ربي لعدم تناهيها. وقرأ حمزة والكسائي «ينفد» بالياء التحتية. {وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ} أي بمثل ماء البحر {مَدَداً} أي زيادة لنفد البحر ولم تنفد كلمات ربي. وقيل: هنا بمعنى غير، أو بمعنى دون. وروي أن حيي بن أخطب قال: في كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، ثم تقرأون وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً فنزلت هذه الآية أي إن ذلك الحكمة خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله ثم أمر الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يسلك طريقة التواضع فقال: {قُلْ} لهم بعدما بينت لهم شأن كلماته تعالى: {إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} لا أدعي الإحاطة بكلماته تعالى التامة {يُوحَىٰ إِلَىَّ} من تلك الكلمات. {أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ} لا شريك له في الخلق ولا في سائر أحكام الألوهية وإنما تميزت عنكم بذلك الوحي، {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ} أي فمن استمر على رجاء كرامته تعالى {فَلْيَعْمَلْ} لتحصيل تلك الطلبة العزيزة {عَمَلاً صَٰلِحاً} لائقاً بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات {وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا} إشراكاً جلياً كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولا إشراكاً خفياً كما يفعله أهل الرياء. روي أن جندب بن زهير العامري قال لرسول صلى الله عليه وسلم: إني لأعمل العمل لله فإذا اطلع عليه سرني فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه». فنزلت هذه الآية تصديقاً له وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال له: «لك أجران أجر السر وأجر العلانية» . فالرواية الأولى: محمولة على ما إذا قصد بعمله الرياء والسمعة. والرواية الثانية: محمولة على ما إذا قصد أن يقتدى به. والمقام الأول مقام المبتدئين والمقام الثاني مقام الكاملين. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين آمين.

(تم الجزء الأول من تفسير مراح لبيد. ويليه الجزء الثاني، أوله: سورة مريم)